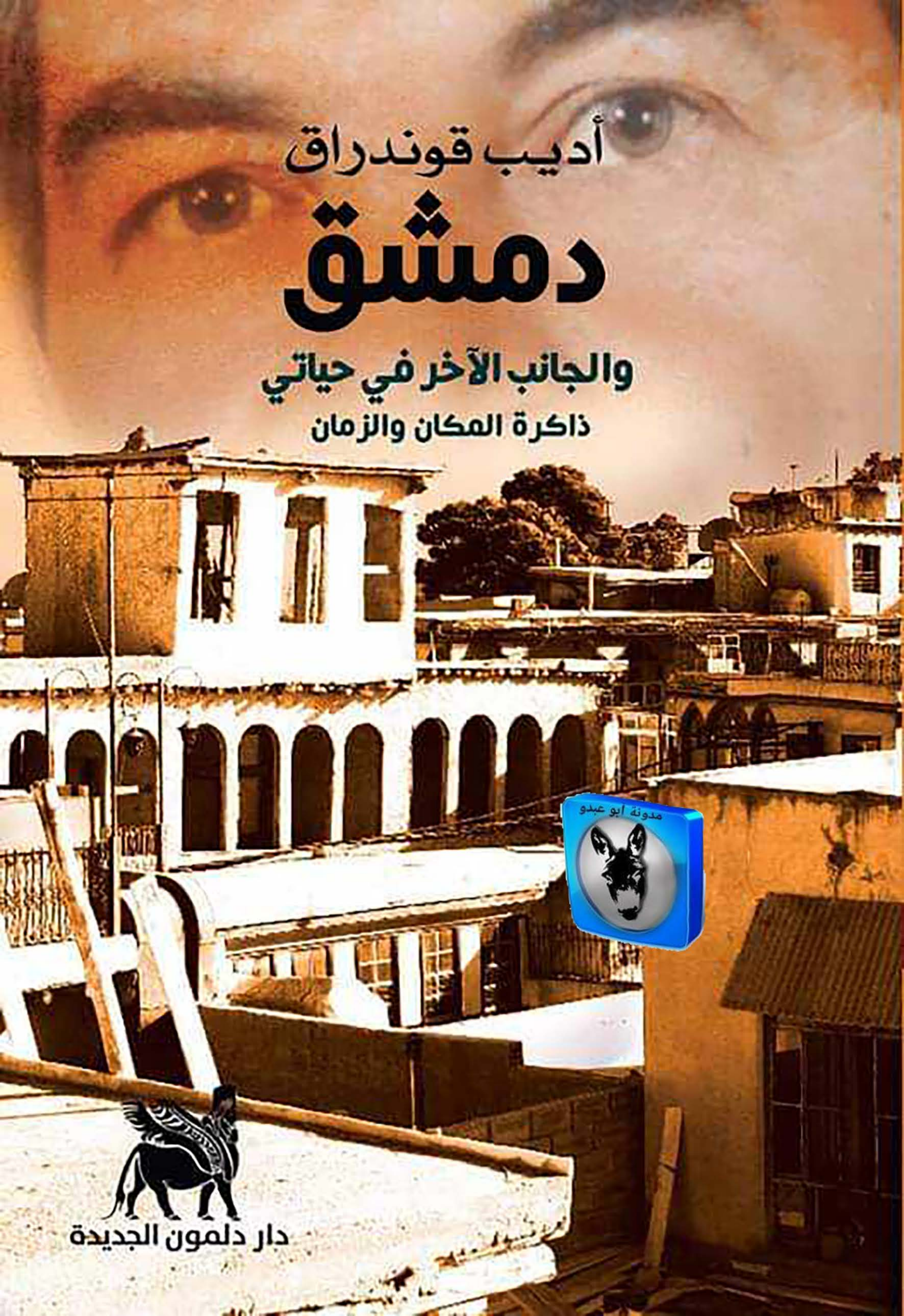

أديب قوندراق
دمشق
والجانب الآخر في حياتي
ذاكرة المكان والزمان
مدونة ابو عبدو
دار دلمون الجديدة

أديب قوندراق

دمشق

والجانب الآخر في حياتي

ذاكرة المكان والزمان

تحرير غيث العبد الله

اسم الكتاب: دمشق والجانب الآخر في حياتي
اسم الكاتب: أديب قوندراق
تحرير: غيث العبد الله
عدد الصفحات: 180
القياس: 14❖21.5
250/2020م 1442 ه

سورية. دمشق. ص.ب 2291
هاتف: 963113444369+/ 00963930700443
البريد الإلكتروني: newdalmoun@gmail.com
الموقع الإلكتروني: www.newdahmoun.com
تصميم لغلاف: الفنان باسم الصباغ



New Dalmoun

مقدمة

شكّلت الأعوام الثمانية التي عاشها أديب قوندراق مطلع شبابه في دمشق أبرز المحطات الهامة في تكوين شخصيته العلمية والثقافية، لا بل اعتبرها هو المرحلة الأهم في حياته.

غدت دمشق "المكان والزمان" بناسها وأعلامها ومطارحها، منطلقاً لكثير من الأفكار والمشاريع الثقافية والأدبية التي كان يطمح لها ويفكر بتنفيذها لاحقاً في مسقط رأسه ومدينته السقيلبية.

وهذا ما كان له بعد أن غادر دمشق أواخر العام ١٩٧٧ راجعاً إلى السقيلبية حاملاً في قلبه ووجدانه عشقه الأزلي لها وذكرياته التي لا يمكن نسيانها عن أقدم عاصمة في التاريخ، وأراد لهذه الذكريات أن تكون في كتاب.

في السقيلبية، وبالرغم من الفترة القصيرة التي قضاها في سلك التعليم والتي لم تتجاوز ستة أعوام، إلا أنه ترك بصمة لا يمكن أن تمحى كأحد أبرز المدرسين الرواد الأكفاء لمادة الفلسفة وعلم الاجتماع، فبرز اسمه مدرساً قديراً، ناجحاً، ومربياً فاضلاً على قدر كبير من المسؤولية والعطف تجاه طلابه الذين طالما انتظروا موعد حصته بشغف وترقب إذ كان مدركاً ومتفهماً أحوالهم واحتياجاتهم النفسية، مؤثراً الحوار على النهي في تعامله معهم.

عندما أوكلت إليه مهمة إدارة المركز الثقافي العربي بالسقيلبية أوائل العام ١٩٨٣ لم يكن أساسه يحتوي إلا على قاعتين، واحدة

للمحاضرات وأخرى للمعارض. في القسم الغربي منها يوجد مكتبة متواضعة، وطاولة للمدير وأخرى لمستخدميَّن اثنين.

بفضل ثقافته الواسعة وحسه الإداري المنظم تمكن وخلال سنوات قليلة من جعل المركز الثقافي في السقيلبية أحد أبرز مراكز المحافظة حضوراً وفعالية إذا لم نقل المنطقة الوسطى وربما أبعد. مساهماً بذلك مساهمة فعالة وريادية في تأسيس النشاط الثقافي والفكري لمدينتنا، إن كان عبر مؤلفاته وأبحاثه، ومحاضراته أم عبر تفعيله لدور المركز الثقافي في نشر الثقافة انطلاقاً من أهمية دورها في بناء الإنسان والمجتمع.

بفضله تعرفت السقيلبية عن كثب إلى أسماء هامة وفاعلة من أبرز المبدعين السوريين والعرب في المشهد الثقافي وعالم الفكر والأدب والفلسفة والسياسة والاقتصاد والفنون على أنواعها، حيث حفلت سنوات عمله الإداري هذه بأبرز الأنشطة والمواضيع والعناوين.

نافست الأسابيع الثقافية التي دعا إليها المركز الثقافي العربي في السقيلبية برئاسة أديب قوندراق أسابيع مراكز المحافظات والمدن الكبرى، لجهة العديد من الفعاليات الهامة التي كان عليها والمواضيع الغنية وأهمية المشاركين فيها، ونوعية الحضور.

برز اسم ثقافي السقيلبية كواحد من أكثر مراكز القطر نشاطاً وحضوراً بشهادة زواره من المحاضرين وغيرهم.

وبات اسمه مرتبط باسم أديب قوندراق الذي لعب دوراً هاماً على تطويره حضوراً وعمراناً وتوجهاً جاعلاً منه هدفاً لتطلعات أسماء كبيرة في الشأن الثقافي وغيره، رغبةً مهم في اعتلاء منبره ولقاء جمهوره.

وهنا لابد من الإشارة إلى اهتمامه محلياً بالطاقات الإبداعية الشابة ومنحها فرصاً لإبراز موهبتها في مجالات وميادين عدة.

يتحدث في كتابه "السقيلبية تاريخ وذاكرة" الصادر سنة ٢٠٠١ عن تلك الفترة:

لعب المركز الثقافي العربي في السقيلبية دوراً هاماً في نشر الثقافة وتشجيع الحركة الأدبية والفكرية والفنية في مدينة السقيلبية ومنطقة الغاب.

تولى إدارته الأستاذ مسوح العجي (مجاز لغة عربية) منذ تأسيسه في سنة ١٩٧٥ وحتى سنة ١٩٨٣ حيث نُدبت من مديرية التربية لرئاسة المركز الثقافي العربي في السقيلبية، وبذلت ما في وسعي لاستقطاب العدد الأكبر من المحاضرين في ميادين الأدب والفن التشكيلي والفن المسرحي وفي مجال الفكر والسياسة، وعملت على إغناء المكتبة العامة ومكتبة الأطفال بالكتب والموسوعات القيمة، وأُقيمت الأسابيع الثقافية وحضَرَت إلى مركزنا فرقٌ فنية ومسرحية من مختلف محافظات القطر واستطاع هذا المركز - رغم حداثة عهده - من أن يتخذ مكانة مرموقة بين المراكز الثقافية في محافظة حماه و أن يضع أبناء مدينة السقيلبية في جوٍ علمي ثقافي وحضاري.

ومن الأسماء التي قدمت نشاطاً فكرياً وثقافياً في مركزنا نذكر: الدكتور سهيل زكّار، الشاعر عبدالله يوركي حلاّق، رائد الفضاء السوري محمد فارس، الأديب وهيب كيروز حافظ متحف جبران خليل جبران، المستشار والباحث السياسي الدكتور هاني خليل، شاعرحلب الشهباء أنطوان شعراوي، الفيلسوف السوري الدكتور طيب تيزيني، الأديب الشاعر مدحة عكّاش، الدكتور الشاعر وجيه البارودي، الأديب الباحث وليد قنباز، العقيد أركان حرب حسن

حده، الدكتور طالب عمران، الدكتور أحمد الغفري، المهندس ملاتيوس جغنون، الدكتور عبد المجيد شيخ حسين رئيس جامعة البعث في حمص، الأستاذ زُبير سلطان، المهندس فايز فوق العادة، الأستاذ عبد الرزاق الأصفر، الشاعر أيمن أبو شعر، الشاعر نزيه أبو عفش، الأستاذ ممدوح عدوان، الأستاذ حسن كمال مدير متحف قصر العظم بدمشق، الدكتور قدري جميل، الدكتور عمار بكداش، الأستاذ الدكتور سري رستم، الدكتور معروف الرزوق، الدكتور ميشيل واكيم، الدكتور عبد العزيز علُون، الكاتبة الروائية الدكتورة هيفاء بيطار، الدكتور جورج نحّاس، الدكتور محمد علي آزر شب الملحق الثقافي الإيراني بدمشق، الدكتور سمير يوسف ضاهر، الدكتور حنا دعبول، الدكتور رياض ضاهر الأستاذ رفيق الأتاسي) ولعلنا هنا نستشهد بماقاله الدكتور سهيل زكار حين زار المركز الثقافي العربي في السقيلبية في ٩ أيار ١٩٩٠ وارتجل كلمة في مستهل محاضرته جاء فيها :

"أيها الأخوة منذ أربعين عاماً زرت السقيلبية وحملت في ذهني صورة عن أبنائها، فالسقيلبية مجتمع متطور، منفتح والناس في هذه البلدة يتمتعون برقي حضاري، لا يعرفون التعصب، يعرفون الانفتاح، روح طيبة، يلمس في جوانبها المرح والمنطق والأريحية العربية. وبعد أربعين عاماً أعود اليوم إلى السقيلبية ومن خلال جلوسي القصير في غرفة الأستاذ أديب قوندراق مدير المركز الثقافي، استعرضت بعض الوجوه واستمتعت إلى عدد من الأحاديث وكنت أصغي إلى النبرات ومخارج الحروف، وإذا بالصورة هي عينها لكن مع اتساع كبير – وحمداً لله– أن ما حملته خلال أربعين عاماً من انطباع عن السقيلبية أصبح اليوم أكثر إشراقا"

أما الفيلسوف والمفكر السوري الدكتور طيب تيزيني فقد زار مدينة السقيلبية بتاريخ ١٩٩٥/٦/٢٢ وبعد أن صعد المنصة وارتجل كلمة جاء فيها :

"أيها الحضور الكريم، كنت أتمنى منذ فترة ليست قصيرة أن أزور هذه المدينة الشابة، تلك المدينة التي مَكَثت وتمكث في وجداني منذ عدة عقود، لقد سمعت عنها الكثير ومما سمعت أنها أحد موائل الفكر العقلاني المستنير وموئل الفكر الإيجابي الناهض وها انذا الآن أمامكم سعيداً فعلاً في أن أتحدث إليكم حول مسألة لعلها أصبحت واحدة من كبريات المسائل المعاصرة في الوضعية العربية الراهنة. "

ختاماً قد لا نغالي فيما لو قلنا أن أديب قوندراق قد أصبغ بحضوره المعرفي، والثقافي، والإداري فترة هامة وذهبية من حياتنا الثقافية طيلة تسلمه فيها إدارة المركز الثقافي العربي في السقيلبية خلال الثمانينيات والتسعينيات الماضية ومطلع الألفية الثانية.

أديب قوندراق في سطور:

- ولد في السقيلبية - محافظة حماة - عام ١٩٥٠
- تلقى دراسته الابتدائية والإعدادية في مدارس السقيلبية ثم تابع تحصيله العلمي في مدينة حماه فدرس في ثانويتي عثمان الحوراني وأبي الفداء.
- ١٩٦٨ نال الشهادة الثانوية من ثانوية أبي الفداء بحماه.
- التحق بجامعة دمشق لدراسة الأدب الانكليزي، لكنه أوقف دراسته بعد عام ليدرس الصحافة في معهد الصحافة بدمشق التابع لوزارة الإعلام.
- تخرج من معهد الصحافة بدورته الأولى عام ١٩٧١ بدرجة جيد جداً، ومن ثم عمل في وزارة الإعلام السورية "مديرية العلاقات العامة والملحقين الصحفيين".
- تابع تحصيله الجامعي وحصل على شهادة الليسانس في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية.
- خضع لدورة تخصصية عام ١٩٧٣ لتعلم اللغة العبرية لمدة سنة وتخرج منها بدرجة امتياز.
- التحق بخدمة العلم عام ١٩٧٥ وعمل لدى الإدارة السياسية قسم الحرب النفسية، وكان يدرس مادتي اللغة العبرية وعلم النفس العسكري، وساعده إتقانه للغة العبرية على إعداد أرشيف معلوماتي عن الوضع العسكري الإسرائيلي من الناحية النفسية.
- شارك في إعداد وتقديم نشرات الأخبار باللغة العبرية الموجهة إلى الأرض المحتلة عبر إذاعة دمشق.

- ساهم مع عدد من زملائه في الإدارة السياسية في وضع كتاب بعنوان (تشرين المجد) عن حرب تشرين التحريرية.
- التحق بوزارة التربية عام ١٩٧٧ وغادر دمشق نهائياً ليعود إلى السقيلبية حيث عمل مدرساً لمادة الفلسفة وعلم الاجتماع في ثانويات السقيلبية.
- نُدب من وزارة التربية لرئاسة المركز الثقافي العربي في السقيلبية عام ١٩٨٣ حيث لعب دوراً هاماً في تنشيط الحياة الثقافية الفكرية والثقافية والفنية في مدينة السقيلبية وعلى مدى عشرين عاماً.
- تسلم إدارة مركز سهيل الأحدب للفنون التشكيلية بحماة حتى إحالته على المعاش سنة ٢٠١٠ .
- صدر مؤلفه الأول (المسيح في القرآن ووحدة الهدف) عام ١٩٩٩.
- صدر مؤلفه الثاني (السقيلبية تاريخ وذاكرة) عام ٢٠٠٠.
- اعتمد كتابه (السقيلبية تاريخ وذاكرة) كمرجع علمي ثقافي في التراث السوري من قبل الندوة العلمية حول الاتفاقية الدولية للحفاظ على التراث الثقافي التي أقيمت في معهد التراث بجامعة حلب عام ٢٠٠٥ حيث شارك فيها ممثلاً عن محافظة حماه.
- توفي في ٢٠١٩/٦/١٨ بعد صراع مع مرض عضال ألمّ به قبل سنة ونصف، أبدى حياله شجاعةً وتحملاً وتحدياً، وسابق خلالها الزمن تاركاً لنا عدة مؤلفات لم تطبع بعد أبرزها: (دمشق والجانب الآخر في حياتي) و(بين ظلال معبد وثني) و(المرأة حكاية ظلم وتاريخ اضطهاد).

- برحيل الأديب والباحث الأستاذ أديب قوندراق تكون السقيلبية والغاب وحماة عموماً قد خسرت أحد أبرز وجوهها الثقافية والأدبية والإدارية، ومن أهم حافظي تراثها اللا مادي والإنساني.

غيث العبد اللّٰه
السقيلبية، أيار ٢٠٢٠

بلادي وزهر دمشق يضـــــــوع **بما في الـــذرا من شذا ضيّـــعِ**

دمشـــق الجميلـــة عند ربــــاً **من الشرق طيّبـــــــة المرتــعِ**

سألت لنا اللـــه أيــام رغــــدٍ **كصـحوّ مطـــــلاتك الممتـعِ**

بلادي عليك سلام الشعـــوب **فــفي البال أنت وفي المسمـعِ**

-١-

معهد الصحافة

الحنين المتّقد في داخلي إلى دمشق وأيامها ينذرني أنّني أصبحت شيخاً قبل الأوان، لهذا تراني أحنّ إلى أيام الماضي وذكريات الشام حنين الشيخ إلى صباه، وحنين الإبل إلى ربوعها. قليلون من أهلي في السقيلبية يعرفون مرحلة دمشق بالنسبة لي، والأكثرية يعرفون أنّي عملت مدرّساً لمادّة الفلسفة ورئيساً للمركز الثقافي العربي في السقيلبية لمدّة عشرين سنة، واختتمت عملي الوظيفيّ رئيساً لمركز الفنون التشكيلية بحماة لمدّة عشر سنوات، لذا أجد رغبةً ملحّةً في أعماق نفسي لتسليط الأضواء على مرحلة دمشق والتي تشكّل الأساس في تكوين شخصيّتي العلمية والثقافية وهي المرحلة الأهم في كامل حياتي.

الأدب الانكليزي والصحافة:

في العام الدراسي ١٩٦٨ - ١٩٦٩ التحقت بجامعة دمشق لدراسة الأدب الانكليزي، وقبل نهاية العام أعلنت وزارة الإعلام السورية عن مسابقة لقبول الانتساب إلى معهد الصحافة. وكون الصحافة كانت حلماً لي، شاركت في المسابقة وتقدّم معي أثناءها كلّ من الأعزّاء نزيه الضاهر والمرحوم بديع دويب ومخائيل الاكسرخوس، ونجحت، والسبب لكوني أجيد الانكليزية، واللجنة الفاحصة كانت تعبّر عن حرصها بانتقاء صحفيّين يجيدون استخدام اللغة الأجنبية. التحقت بالمعهد وأوقفت دراستي الجامعية

حتى إشعارٍ آخر. المعهد بكامل تجهيزاته وعتاده ومدرّسيه ومخابره هديّة من جمهورية ألمانيا الشرقية، صديقة الشعب السوري آنذاك. ومقرّ المعهد في الطابق الثاني من نقابة الفنانين السوريّين في شارع بغداد. كنّا ثلاثةً وثلاثين طالباً وطالبة، كان بيننا عددٌ من الطلاب العرب، من اليمن ولبنان وفلسطين، وثلاث طالباتٍ دمشقيات. كان المعهد بإدارة الأديب والشاعر والصحافي الأستاذ عبد الله حوراني من غزّة فلسطين، وهو الذي تمّ ترشيحه لرئاسة فلسطين خلفاً لياسر عرفات. ومن الأساتذة الألمان أذكر جيداً فرانس فابر وكان متقدّماً في السنّ، إذ كان في السبعين من عمره وهو الذي أمضى وقتاً طويلاً كمراسل لصحيفة نيوز دوتشلاند في فيتنام إبّان الحرب الأمريكية الفيتنامية القذرة. وتمّت مكافأته إذ تمّ إيفاده للإشراف على معهد الصحافة بدمشق، والذي هو فرع من معهد التضامن في برلين. والأستاذ الآخر كان أدولف ليغيه الشاب الوسيم، الأنيق والجميل جداً والخلوق إلى حدّ القدوة. والمترجمون عن الألمانية هم الأستاذ أديب كوا رئيس قسم اللغة الألمانية في إذاعة دمشق والآنسة الراقية نوال حنبلي المذيعة في قسم اللغة الألمانية في إذاعة دمشق أيضاً. أعتذر عن التفاصيل رغم أهمّيتها حرصاً على وقت المتابعين، ومن المدرّسين باللغة العربية لموادّ الصحافة المختلفة أذكر الدكتور أديب خضّور، والأستاذ ميشيل كيلو. ومن أساتذة الموادّ الملحقة والمكمّلة لمهنة الصحافة كان الأستاذ مدحت عكّاش صاحب ورئيس تحرير مجلة الثقافة الأسبوعية الدمشقية، يدرّسنا اللغة العربية التي تقتضيها مهنة الصحافة بشكلها التوجيهيّ، والتنبيه إلى ما يجب أن يُقال، وما يجب تجنّبه والابتعاد عنه. كان شاباً تجاوز السبعين أحببناه كثيراً وهو ابن مدينة حماة العزيزة على قلبي، وأذكر الدكتور محمد توفيق البجيرمي مدرّس مادة اللغة الانكليزية، وقد نشأت

بيني وبينه علاقة صداقة متميّزة، إذ كان يدرّسني في الجامعة. رجل جاد رغم شكله الهزليّ، وفقير إلى حدّ لا يوصف وهو الفلسطينيّ الحامل مسؤولية إعالة أسرةٍ كبيرةٍ من أهله. ولن أنسى ما حييت الأستاذ الدكتور عبد الرحمن منيف، السعوديّ الجنسية، واللاجئ السياسيّ في سوريا. وهو واحدٌ من أشهر كتّاب الرواية العربية. هل تذكرون سلسلته الروائية بعنوان مدن الملح، ورواية شرق المتوسط؟ هذا الكبير في قدره، كم كان صغيراً في جسده، وكم كانت خطيرةً تلك الأسرار التي أطلعنا عليها بما يخصّ الأسرة المالكة الحاكمة في السعودية، حالاتٌ لم تأتِ قصص ألف ليلة وليلة على مثيلٍ لها، حتى في أيام أمير المؤمنين هارون الرشيد. كان الدكتور عبد الرحمن منيف يدرّسنا مادّة البترول العربي. أما الدكتور فاضل الأنصاري عضو القيادة القومية والعراقيّ الجنسية، أوكلت إليه مهمّة تدريسنا القضايا العربية. والدكتور الأردني منير الحمارنة، اللاجئ السياسيّ في سوريا. كان يدرّسنا الواقع السياسيّ لأقطار الوطن العربي.

ياليت معرفتي إياك لم تكن!

من الذكريات العالقة في نفسي حتى يومنا، أنّني تعرّفت وليت معرفتي به لم تكن، بالفنان السوري أنور البابا (أم كامل) /١٩١٥ ـــ ١٩٩٢/، هذا الرجل كان يعيش خارج عصرنا، وينتمي إلى أصولٍ وأخلاقيات وعقلية القرن التاسع عشر ويبدو أنّ الدور الذي كان يمثّله (أم كامل) صاحبة الحجاب السميك والملاية، لعب دوراً في جمود عقليّته إلى حدّ التلف، كنا كطلاب صحافة نشترك مع الفنانين السوريين ببناءٍ واحد، كنا نلجأ إلى ندوة النقابة ونقضي استراحتنا بين الدروس في مقصف النقابة، أنور البابا كان يكره أن يشاهدنا في مقصف النقابة، وحاول منعنا إلى أن تدخّل وزير الإعلام شخصياً

وحصل لنا على موافقة خطّية من نقيب الفنانين آنذاك بحرية تعاملنا مع الندوة والمقصف.

كلّما تذكّرت الفنان أنور البابا (أم كامل) ينتابني الشكّ بأنّه عمّ سندريلا الشاشة المصرية صاحبة الدلع والغنج سعاد حسني ونجاة الصغيرة، فأين الثرى من الثريّا، ولن أنسى موقف الفنان الراقي طلحت حمدي وسعيه لإقامة علاقات طيبة مع جميع طلاب الصحافة، أما عباس النوري الشاب الصغير الذي كان يتردّد في معظم الأوقات إلى مقرّ النقابة، كان منغلقاً وغير اجتماعي، ولم تقم له أيّة علاقة معنا، أما حبّي للفنان علي الروّاس الذي تودّد لنا، وخاصةً بعد أن عرف أنّني من السقيلبية البلد التي ينتمي إليها والد زوجته، وكان يقول: أنا صهركم، حبّي لهذا الفنان الطيّب الفقير أكبر من أن يوصف، وزاد حبّي له وللفنان محمد خير حلواني، بعد متابعتنا لمسلسلهم التلفزيوني الذي كان بعنوان (حكايا الليل) كما يرويها زبّال الحارة علي الرواس للحارس الليلي محمد خير حلواني، وكان علي الرواس يعرف ما يدور في بيوت الحارة من خلال نفاياتهم.

-٢-

حفل التخرّج

بـلادي وأيّ مهبٍّ ريـــــاحٍ بأحلامنا السمرِ لم يـذرع

حكايتنا أنّنا فـــي الوجــود طموحٌ يطلّ علـــى الأروع

أثنــاء حفــل التخــرّج في معهــد الصــحافة، اختــارني الــدكتور البجيرمـي لإلقـاء كلمـة طلبـة المعهـد باللغـة الانكليزيـة، وكـان مـن بـين الحضور السيد سفير ألمانيا الديمقراطية، والملحق الصحافي والملحق الثقافي في السفارة، كنـت في السـنة الحاديـة والعشـرين مـن عمـري. شـكرت ألمانيـا الديمقراطيـة الصـديقة حكومـةً وشـعباً، وشـكرت لهـم هديّتهم القيّمة (معهد الصحافة)، والسادة المدرّسين وكلّ مـن سـعى وعمل على إنجـاح مهمّـة المعهـد في إعداد كادرٍ صـحفيّ سـوريّ لأول مرّة، ولا أنسى فرحة طلاب المعهد وأساتذته الألمان يوم حضـرنا إلى السقيلبية في طريقنا إلى اللاذقيـة، واسـتجاب الجميـع لـدعوة الأهـل إلى وجبة غذاء سقلوبية فاخرة، بقيت حيّة في ذاكرة الجميـع. يومها وقفت السيدة جميلة نصّار امرأة عمّـي الفاضـلة، ورحبّـت بالضـيوف نشيداً وغناءاً وهلهلة أسرّت قلوب الجميع (طيّب اللّه ثراك يا ملاكي الطيب).

ومن ذكريات المكان والزمـان: ذات صـباح، وقبـل موعـد الـدروس توقّفت سـيارة فـاخرة لمراسـم القصـر الجمهـوري، ونـزل منـها شـابّان يحمـلان علباً تحتـوي علـى حلويـات دمشـقية فـاخرة، يجولـون علـى المارّة من أمام مشفى الطبّ الجراحـي الملاصق لبناء المعهد الصحافي يقدّمون الضيافة. والمناسبة أنّ حرم فخامة الرئيس السوري الدكتور نـور الـدين الأتاسـي، وضـعت مولـوداً ذكـراً، ولكـن دعـاء جميـع الـذين

تناولوا ضيافة المولود لم تشفع للوالد، وكان الصبيّ المولود مصيبةً أودت بمنصب الوالد على يد الحركة التصحيحية، والتي أطاحت برموز القيادة السابقة كلّها، وعلى مقربةٍ من معهدنا كان يوجد معهد اللاييك (معهد الحرية)، وهو أهمّ صرحٍ تعليميّ في دمشق، منذ عهد الانتداب الفرنسي حتى يومنا هذا. في هذا المعهد كان يتعلّم أبناء الساسة القادة، وأبناء وزراء الدولة وكبار ضبّاط الجيش، وكان أنجال السيد وزير الدفاع السوري آنذاك، سيادة الفريق حافظ الأسد من بين أولئك الدارسين في المعهد المذكور، والذي يحمل حالياً اسم معهد الشهيد باسل الأسد، ومدير اللاييك هو الدكتور عبد العزيز علّون، ناقد أدبي على الصعيد العالمي، هو من خان شيخون. ومن الأمور الطريفة أنّ عبد العزيز علّون كان أول شخص في حياتي أُجري معه لقاءً صحفياً، وكنت حينها لا أزال طالباً في السنة الأخيرة. كم كان كبيراً ومحترماً، وكم كانت فرحته كبيرة لوجود طلاب يدرسون لأول مرّة الصحافة في سوريا. دراسة علمية وبإشراف ورعاية ألمانية، تحدّث واستفاض في الحديث عن تاريخ اللاييك، منذ تأسيه حتى تاريخه. ورافقني شخصياً لزيارة أقسام ومخابر ومراسم وقاعات ذلك الصرح التعليميّ الشهير. وقامت بيننا صداقة، ومرّت السنوات وفكّرت بدعوته لتقديم محاضرة في مركزنا الثقافي، فاستجاب وحضر وحاضر بعنوان: "شعراء من أفاميا"، فأبدع وأتحف الحضور، وأما النشاط الصحافي الثاني لي قبل التخرّج كان اللقاء الذي أجريته مع مدير الشركة الخماسية لصناعة النسيج والسجاد في سوريا. الأستاذ يوسف أحمد، والذي أصبح لاحقاً سفيراً لسوريا في مصر، ثمّ المندوب الدائم لسوريا في مقرّ الجامعة العربية. وكان تقدير الأستاذ فابر لهذا اللقاء ممتازاً، حصلت من خلاله على علامات مكّنتني من النجاح والتخرّج بدرجة امتياز، وحصلت على مكافأة

مالية تعادل راتب سنة بكاملها. نجاحي المتميّز جعل إدارة المعهد تخيّرني بين ثلاثة أماكن للعمل: (المكتب الصحفي في وزارة الخارجية، وزارة الاعلام العلاقات العامة والملحقين الصحفيين، أو هيئة الإذاعة والتلفزيون). وبعد السؤال والاستفسار تمّ نصحي باختيار وزارة الإعلام. وهكذا تمّ الاختيار والتحقت بمديرية العلاقات العامة والملحقين الصحفيّين في وزارة الإعلام. وكنت حينها أصغر موظّف في الوزارة. ومن الأمور الطريفة أنّني كنت أشغل مع السيدة الدمشقية ختام زين العابدين، شقيقة المذيع السوري الكبير أحمد زين العابدين، مكتباً واحداً. وذات يوم زارنا صحافي ليبي فسلّم على السيدة ختام، وسلّم عليَ وتوجّه إليها سائلاً: هل المحروس ابنك يداوم معك كلّ يوم؟، فابتسمت وأجابت: هذا الشاب الذكيّ الذي تراه، إنّما هو زميلي، وهو خرّيج معهد الصحافة بدمشق، ويتابع دراسة الفلسفة وعلم النفس في جامعة دمشق، ومنذ ذلك الوقت والسيدة ختام تخاطبني بـ: اللّه يرضى عليك يا ابني، واعتبرت ذلك تشريفاً لي من سيّدة بمقام السيدة الدمشقية الراقية ختام زين العابدين.

وفي وزارة الإعلام تعرّفت على الأديب الكبير زكريا تامر، هذا الذي كنت أقرأ مؤلّفاته وقصصه في منهاج المرحلة الثانوية، ذلك الشاب الطويل المبتسم دائماً. أحزنني أنّه كان شبه ضرير، عندما يقرأ، كان يقرّب الكتاب إلى أن يكاد يلتصق بعينيه، ولا أنساها السيدة نوال أحمد زوجة معاون الوزير الأستاذ أديب غنم، وهي ابنة الشاعر والسياسي السوري الكبير بدوي الجبل، كانت أحنّ عليّ من أختي الكبيرة. ما أعظمك يا أمّ تميم، أيّتها المثقّفة التي لا تضاهيها امرأةٌ أخرى في سعة ثقافتها.

-٣-

الشاب السقيلباويّ الصغير

يلقّن الصحافيّ الأمريكيّ الكبير درساً في الأخلاق والأدب

يحدّث عنك برفعة رأسٍ حديث البطولات لم تركعِ
إذا تذكرين يشيل جناحٌ ويوغل في الزمن المسرع

في النصف الثاني من شهر تمّوز من سنة ١٩٧٤، في مديرية العلاقات العامة والملحقين الصحفيّين في وزارة الإعلام السورية، الساعة التاسعة من صبيحة يوم الأحد، غادر السيد مدير العلاقات العامة إلى قسم اللغة الانكليزية في جامعة دمشق لتقديم محاضراته، طُرق باب مكتبي بقوّةٍ وإلحاح. تفضّل! دخل رجلٌ طويل القامة، متوسّط العمر. من يراه يظنّ أنّه أحد اللاعبين في فريق: Basketball Association المعروف باسم BAA : تكلّم بلغةٍ انكليزية ولكنة أمريكية خالصة، قال: أنا جوزيت آليا رئيس الوفد الإعلامي المرافق لوزير الخارجية كيسنجر، انشغلت أمس كثيراً وتأخّرت عن اللحاق بطائرة الوزير، وأريد السفر إلى الأردن عن طريق درعا، أرجو أن ترسل لي برقية عاجلة إلى المركز الحدودي في درعا للمغادرة. قلت له: الوفد الإعلامي المرافق للوزير كيسنجر من اختصاص وزارة الخارجية، ولا علاقة لنا بالموضوع، وعليك مراجعة وزارة الخارجية صاحبة الشأن. قال لكن أنا صحفيّ، ويجب أن أغادر عن طريق وزارة الإعلام، اتّصلت بالسيّد معاون الوزير، وكان

وقتها الأستاذ أحمد مدنية، وقد أصبح فيما بعد سفيراً لسوريا في الجزائر. سألته فقال: ليراجع وزارة الخارجية، لأنّه لم يدخل عن طريقنا، وأبلغت الصحفيّ بضرورة مراجعة الخارجية، فتأفّف وضرب بقبضته على الطاولة: عليك أن تكتب البرقية إلى الحدود الأردنية، ولا يهمّني ما قاله معاون الوزير. وانهال بالشتائم عليَّ وعلى معاون الوزير والوزير. وتطاول أكثر هذا الخنزير الأمريكي (اليهودي) متناسياً أنّه في سوريا. قال كلاماً سوقياً بذيئاً ساقطاً يمنعني الحياء أن أذكره. لكنّني ردّيت عليه الصاع صاعين، لأنّني أولاً سوريّ، وثانياً أنّني من السقيلبية. وقلنا له أكثر مما قال. صرخت في وجهه: يا لك من قليل أدب وتهذيب، اخرج من هنا ولا تعُد، علاقتك مع وزارة الخارجية، وكي لا أتمادى بما لا يحقّ لي تجاه شخصية إعلامية تضاهي شخصية حسنين هيكل في مصر والوطن العربي. ذهبت إلى مكتب السيد الوزير، وكان وقتها الأستاذ جورج صدّقني، وطلبت من مديرة مكتبه الآنسة ديانا عبيد، قريبتنا، مقابلة السيد الوزير على عجل. وتمّ لي اللقاء. ووضعت السيد الوزير بالحالة التي نواجهها، وذكرت له كيف انهال علينا بالشتائم النابية. قال سيادته: اصرفه بالطريقة المناسبة. غادرت إلى مكتبي، وكان جوزيت آليا يقف منتظراً وغاضباً، وكرّر شتائمه فصفقت الباب بقوّة أصاب جبينه، وانبجس الدم فوضع محرمة فوق جبينه وخرج مسرعاً، وغاب. وظننت أنّه اقتنع بضرورة مراجعة وزارة الخارجية، لكنّه عاد وقد ضمّد جرحه على يد صيدلانيّ في الطابق الأرضي من مبنى وزارة الإعلام. عندما رأيته ضحكت ساخراً، وهذا ما زاد في غضبه، قال: عليكم إمّا باعتقالي أو تسفيري إلى الأردن. حضر المدير وقد تأزّم الوضع، وشرحت للسيد المدير وقائع الحدث، والمهم أنّ السيد المدير أقنع السيد الوزير بضرورة ترحيله إلى الأردن، وطلب منّي المدير

إعداد البرقية، فرفضت واضطر أن يكتبها ويرسلها بنفسه. كان مكتب السيد المدير يغصّ بعددٍ كبيرٍ من الصحفيّين الكبار، الذين حضروا لتغطية الجولة المكّوكية لوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر لتثبيت الهدنة بين سوريا وإسرائيل. مدّ يده يودّعني، فرفضت أن أضع يدي بيده، وقلت أمام الجميع وبلغةٍ انكليزيةٍ خالصة. كنت قليل أدب، وعليك أن تعيد تأهيل أخلاقك من جديد. وانقلع. انقضّ عليَّ الصحفيّ اللبنانيّ الأمريكيّ إدوارد صعب، وقبّلني: يرحم بطن اللي حملك، ثأرت لكلّ الصحفيّين العرب في أمريكا من هذا التمساح القاتل، ورمقتني الصحفية الكبيرة السيدة عائدة باقي بنظراتها الراضية: شكراً على ما فعلت، لكن وحده السيد المدير كان غاضباً من موقفي!

وفي نشرة أخبار الظهيرة، بثّت إذاعة إسرائيل خبر إهانة رئيس الوفد الإعلامي المرافق لكيسنجر على يد موظّف في وزارة الإعلام السورية. وفي نشرة أخبار الساعة الثالثة نشرت إذاعة لندن الخبر نقلاً عن إذاعة إسرائيل. وراح الزملاء يمزحون بقولهم: عليك التخفّي لأنّك ستكون هدفاً للمخابرات المركزية الأمريكية.

وكنت أقول: لكنّني في عرينٍ حصين، عصيّ على الأمريكيّين وعلى غيرهم من الأنذال، أنا في سوريا.

وعلمنا لاحقاً أنّ جوزيت آليا تأخّر عن طائرة الوزير هنري كيسنجر، لأنّه كان في زيارةٍ للحيّ اليهوديّ بدمشق، وقضى ليلته في منزل حاخام الطائفة اليهودية المدعو طوطح.

-٤-

في وزارة الإعلام

بلادي وحبّك ياموجعي — معي يابلادي يعيش معي
ترابـاتك المطلعات الربيـع — أكفٌّ من الذهب الممرعِ

أمضيت في وزارة الإعلام خمس سنواتٍ قبل التحاقي بخدمة العلم ١٩٧٥ ، وعاصرت في الوزارة عدداً من السادة الوزراء منهم: حمود القباني، ثمّ جورج صدّقني، ناجي الدراوشة، وأخيراً الأستاذ أحمد اسكندر أحمد . والمرحلة الأهمّ كانت تلك التي قادها جورج صدّقني الذي جاء في حكومة السيد محمود الأيّوبي التي شهدت تعديلاتٍ حاسمة بصفوفها قبل عشرة أيام من بدء سوريا ومصر حربهما المشتركة ضدّ إسرائيل، في السادس من تشرين الأول لعام ١٩٧٣ . الأستاذ جورج صدّقني عُرف بوزير إعلام حرب تشرين التحريرية وهو عضو في القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث، وأحد أبرز منظّري حزب البعث، والمشاركين في وضع منطلقاته النظرية، والأستاذ جورج صدّقني أشرف شخصياً على بثّ خطاب السيّد الرئيس حافظ الأسد للشعب السوري في اللحظات الأولى من بدء ساعة الصفر على جبهة الجولان، عبر شاشة التلفزيون. وقد جاء في الخطاب:

"لسنا هواة قتلٍ وتدمير، إنّما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير. لسنا معتدين ولم نكن قطّ معتدين، لكنّنا لا نزال ندفع عن أنفسنا العدوان. نحن لا نريد الموت لأحد، إنّما ندفع الموت عن شعبنا. إنّنا نعشق الحرّية، ونريدها لنا ولغيرنا، ونداافع اليوم كي ينعم شعبنا بحرّيته. نحن دعاة سلام، ونعمل من أجل السلام لشعبنا ولكلّ شعوب العالم، ونداافع اليوم من أجل أن نعيش بسلام. فسيروا على بركة اللّه، وإن ينصركم اللّه فلا غالب لكم. والسلام عليكم".

كان الأستاذ جورج صدّقني من الأصدقاء المقرّبين للرئيس الخالد حافظ الأسد، وقاد دفّة الإعلام إبّان فترة الحرب، وما تلاها من حرب الاستنزاف، بنجاحٍ منقطع النظير وكانت سوريا خلال هذه الفترة محطّ أنظار العالم، وكانت محجّاً للصحفيّين والمراسلين من شتّى أنحاء العالم. ولأيّامٍ طوال، تمّ في نهايتها وقف العمليات الحربية، ونشر قوّات دولية للفصل بين القوات المتحاربة على جبهة الجولان، والإشراف على انسحاب القوات الإسرائيلية من القنيطرة، ونحن في مديرية العلاقات العامة والملحقين الصحفيّين عانينا كثيراً من ضغوط الوفود الإعلامية، وتأمين طلباتها من زيارات لجبهة القتال، واللقاءات مع المسؤولين العسكريين والسياسيين، ثمّ تغطية النشاط السياسي الكثيف جداً، أثناء الجولة المكّوكية لوزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر والتي استمرّت أياماً وأسابيع متواصلة.

ما أريد قوله والوقوف عنده، أنّ وزارة الإعلام هي نافذة سوريا على العالم، وفي الوقت نفسه، هي البوابة الواسعة للعالم إلى سوريا، طبعاً مع وزارة السياحة، وكلاهما خاصرة رخوة، وثغرة مكشوفة في الهرم الحكومي. ومن خلالهما، يدخل بعض المغرضين للوصول إلى

أهدافهم وتحقيق مصالحهم، وقد يكون الجواسيس من ضمن هؤلاء الذين يدخلون بلباس وهوية صحفية.

كاتلين إيفانز Katleen Evans

هي الصبية البريطانية (اللندنية)، الحسناء الجذّابة، وصاحبة الفتون والإغراء، والمراسلة المعتمدة لهيئة الإذاعة البريطانية بدمشق باللغة الانكليزية B.B.C.

بعد تحرير القنيطرة قامت مؤسسة السينما السورية بتصوير فيلم سينمائيّ وثائقيّ عن الدمار الشامل الذي ألحقه الإسرائيليون بالمدينة ومقابرها، وتمّ ترشيح كاتلين إيفانز من قبل وزارة الإعلام للتعليق بصوتها ولغتها الانكليزية الخالصة على فيلم بعنوان: (القنيطرة موت مدينة)، وفيلم آخر بعنوان: (دروس في الحضارة) أثناء التصوير، كانت تحرص على أن لا يظهر وجهها إلا بشكلٍ جانبيّ، لا يسمح بتحديد ملامحها. وعندما سألت عن السبب، علمت أنّ الحسناء إيفانز عميلة مزدوجة بين سوريا وإسرائيل.

بعد أداء هذه المهمة ونجاحها بالشكل المطلوب، راحت تتردّد بشكلٍ يوميّ على مكتبنا، وبدت لي وكأنّها زميلةٌ لنا في الوظيفة، وكانت تطيل البقاء مع الزميل عادل البشتاوي، الشاب الفلسطينيّ من مخيّم اليرموك. عادل كان متزوّجاً وله ثلاثة أطفال، كانوا لا يزالون صغاراً. وذات يوم طلبت كاتلين إيفانز زيارة سدّ الفرات، ومحافظتي حلب والرقّة لمدّة يومين. وحجزنا لها في الفندق السياحي بحلب، وطلبنا إلى الجهات الرسمية في المحافظتين ومدينة الطبقة، بتسهيل مهمّتها، ومرافقها عادل بشتاوي، انقضت اليومان، وفي اليوم الثالث اتّصلت زوجة عادل تسأل عن سبب تأخيره، سألنا وتبيّن لنا أنّهما غادرا حلب، واتّجها إلى درعا، ومنها إلى الأردن فإسرائيل.

هـرب عـادل مـع عشيقته البريطانيـة تاركـاً في مخيّم اليرمـوك زوجـةً وأطفالاً بلا معيل.

ومن الأمور اللافتة انطفاء شخصية السيد وزير الاعلام الأستاذ جورج صدّقني بشكلٍ سريعٍ ودراماتيكيّ، إذ بين ليلةٍ وضحاها، غاب نجم أشهر وزيـر إعـلام عرفتـه سـوريا عبر تاريخها الطويل، لم نعد نراه كالعـادة. وهـو الـذي كان يصـل إلى الـوزارة قبـل المـوظفين أغلب الأوقـات. السـيد معـاون الـوزير هـو الـذي تمّ تكليفـه بتسـيير شـؤون الوزارة مؤقتاً. ماذا جرى؟ ولماذا تمّ إبعاد السيد الوزير وكفّ يده عن مهامّه؟ لا جواب.

لكنّـي أذكـر أن جاءتنـا صـحفية إيطاليـة، والـدها يونـانيّ، وأمّها أمريكية، وهـي: -لا أذكر اسمها- تحمل الجنسية الإيطالية وتقيم في روما، جاءتنا بعد توقّف الحـرب. مشـفوعةً بتوصـيةٍ مـن سـفارتنا في رومـا، ووصـفت بأنّها صـديقة ومناصـرة للمسـألة السـورية، وقـد تمّ تحديد موعد لها لمقابلـة السـيد الـوزير. في الموعـد المحـدّد حضـرت إلى مكتبي تنتظـر وصـول السـيد الـوزير، كانـت أجمـل مـن أن تصـفها الكلمـات، حسـناء، سـاحرة وفاتنـة، قـدّمت لهـا كـأس شـاي، وكـوني ديكارتيّ أكثر من الشكّ: هذا الجمال ما قصدنا إلا لغايةٍ في نفسـه، كان معي في المكتب السيد أديب قنديل، وهو الذي كان يشغل منصب مدير المراسم في القصر الجمهوريّ قبـل الحركة التصـحيحية، وهـو خال وزير الاعلام السوري السابق الدكتور حبيب حداد من بلدة رخم في حـوران. تظـاهـرت أنّـي أتكلّـم مـع زميلـي، وقـد اسـتخدمت اللغـة العبرية، حدث ما كنت أتوقّعه، وضعت كـأس الشـاي جانبـاً، وسـألتني باللغة الانكليزية: ماذا قلت؟ لقد فهمت كلماتي العبرية.

غادرت هذه الحسناء مكتبي إلى مكتب السيد الوزير، اتّصلتُ مع الآنسة ديانا عبيد مديرة مكتـب السـيد الـوزير، وحذّرتها أنّ ضـيفة

السيد الوزير تفهم اللغة العبرية، وتمّ اللقاء واستمرّ لساعة ونصف. لم تمرّ لوداعنا كعادة الصحفيّين. وبعد حوالي عشرة أيام وصلنا من سفارتنا في روما، تقريراً مترجماً عن اللقاء الذي تمّ بين السيد وزير الاعلام جورج صدّقني والصحافية الإيطالية. تقرير وُصف بأنّه سرّي للغاية. السيد الوزير تحت تأثيرٍ ما -نجهله-كشف النقاب عن أسرار كان يجب أن تبقى سرّية لنتائج حرب تشرين، تألّمت جداً عندما قرأت التقرير. فخطأ الكبير كبير. تمّ تحويل التقرير إلى المكتب الصحفيّ في القصر الجمهوري، وغاب السيد الوزير دون أن نودّعه. غاب بالضربة القاضية.

-٥-

مذيع باللغة العبرية

وغيماتك البيض سكب العبيــر تُحدّ وتُنزل في الأضــلـــع
ووثباتنــــا مالهـــنّ الـدروب حلمن بوقع الخطا المزمعِ

כאןקולדמשק
עֶרֶבטוֹב
השעהכרגעהיאששבערבואתהמשדרחדשות,
אתםקוראיםאדיב
הנהסיכום .I

هنا صوت دمشق

مساء الخير

الساعة الآن هي السادسة، وإليكم نشرة الأخبار يقرأها عليكم أديب قندراق. والموجز أولاً:

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٧٤ . أي قبل نحو اثنتين وأربعين سنة، من الآن وبعد تخرّجي من دورة التأهيل الإعلامي، مذيعاً باللغة العبرية بدرجة امتياز، وبعد اجتياز مرحلة التدريب العمليّ على تحرير وقراءة الأخبار باللغة العبرية. دخلت إلى استوديو الأخبار في قسم اللغة العبرية في مبنى الإذاعة والتلفزيون – ساحة الأمويين،

وتسلّمت أوراق نشرة الأخبار من الدكتور ربحي كمال، وقد قام بتشكيلها وتدقيقها كونها المرّة الأولى لي على الهواء مباشرة.

لحظاتٌ حاسمةٌ وتاريخية في مسيرة حياتي. في غرفة المراقبة المواجهة للاستديو جلس الدكتور ربحي كمال، وإلى جانبه المخرج الإذاعي.

وعند الساعة السادسة تماماً، أشار لي المخرج للبدء، وانطلق صوتي عبر أثير إذاعة دمشق، ليدخل آذان المستمعين إلى إذاعتنا في سوريا والأراضي الفلسطينية المحتلّة، استغرقت النشرة سبع دقائق، كنت خلالها أُنقّل نظري بين كلمات النشرة المكتوبة أمامي على الورق، ووجه الدكتور ربحي كمال. أقرأ فيها ملامح الرضا مما زادني ثقةً واستمراراً. وبعد الانتهاء ذهبت إلى غرفة المذيعين، وكانت السيدة وصال سمير رئيسة القسم واثنين من المذيعين يتابعونني. هنّؤوني: كنتَ رائعاً..

ثمّ حضر الدكتور ربحي كمال، أخذني إلى صدره، وقبّلني مهنّئاً: كنت رائعاً، صوتك بيجنّن، وكأنّك خُلقت لتكون مذيعاً، شهادة هي بمثابة وسام، كونها صادرة عن قامة علمية مشهود لها عالمياً، فالدكتور ربحي كمال هو أستاذ اللغة العبرية واللغات السامية في جامعتي دمشق وعمّان.

وفي سنة ١٩٧٥، التحقت بخدمة العلم، وتمّ فرزي لصالح الحرب النفسية في الإدارة السياسة، وأوكلت لي مهمّة تدريس اللغة العبرية، وعلم النفس العسكري لدورات ضباط وصف ضباط التوجيه المعنوي. ومن الطلاب الذين درّستهم وما تزال أسماؤهم عالقة في ذاكرتي: الدكتور طالب عمران قبل سفره إلى الهند، وهو الذي تسلّم إدارة المحطة الفضائية التعليمية في سوريا، وهو المؤلّف للعديد من روائع الكتب حول الخيال العلمي. وكان صديقاً لرئيسة وزراء الهند

السيدة أنديرا غاندي. وكان من الطلاب أيضاً، السيد مأمون البنّي المخرج السينمائيّ السوريّ الشهير، وزميله السيد محمد ملص المخرج التلفزيونيّ السوريّ، وكانا جديرين بالاحترام والتقدير. وأيضاً السيد عبد الرزاق القطيني محافظ حماه ولي عليه عتب الأحبة. والصديق العزيز الأستاذ نصّور شاهين أبو عامر ومئات الضباط وصف الضباط، لهم جميعاً حبّي وتقديري.

-٦-

من القنيطرة إلى بيت جن

وزار طيفـــك أجفانـــي فعطّــرهـــــا
يا للطيــوف الغريــرات المعاطيـــر
رشفت صوتك فـــي قلبـــي معتّقـــــةً
لـم تُعتصرْ وضياءً غيرَ منظـــــور

يـوم ٢٤ مـن حزيـران سـنة ١٩٧٤، يـومٌ هـامٌ في تـاريخ سـوريا المعاصـرة، جميـع البعثـات الإعلاميـة المعتمـدة لـدى دمشـق ومراسـلو المحطّـات الإذاعيـة والتلفزيونيـة العربيـة والأجنبيـة، توجّهـت منـذ الصـباح البـاكر إلى القنيطـرة، وأمـواجٌ كثيفـةٌ، ووفـودٌ وحشـودٌ مـن مختلـف شـرائح الشـعب السـوريّ، وبشـكلٍ خـاصّ، أبنـاء المحافظـات الجنوبية، انطلقوا إلى عاصمة الجولان، القنيطـرة لاسـتقبال موكـب سيادة الرئيس حافظ الأسد، الـذي أعلـن أنّـه سـيرفع العلـم السـوريّ شخصياً في سمـاء القنيطـرة، وقـد انسـحبت منـها جحافـل القـوات الإسـرائيلية، بعـد مفاوضـاتٍ طويلـةٍ، صـعبةٍ وشـاقّةٍ بـين الجـانبين السـوريّ والإسـرائيليّ، بوسـاطة هنـري كيسـنجر وزيـر خارجيـة الولايات المتحدة الأمريكية.

كنـت بمرافقـة البعثـة الإعلاميـة لجمهوريـة بلغاريـا الشـعبية الصديقة -آنذاك- وصل موكب سيادة الـرئيس والوفـود الرسمية المرافقـة، تعالـت الأصـوات وارتفعـت الهتافـات ووقـف سـيادته يـردّ

التحية لمواطنيه، كنت على بعد مسافة أمتار قليلة من سيادته، وهي المرّة الأولى التي أرى فيها سيادته شخصياً. قدّموا لسيادته العلم، أخذه بين يديه، رفعه فوق رأسه، قبّله ودفع به إلى السارية، ليرتفع خفّاقاً في سماء عاصمة الجولان: رفرف يا علم بالعالي رفرف يا علمنا فوق!

جاء في كلمة سيادة الرئيس:

"إرادة الشعب لا يمكن أن تُقهر، وأنّ الوطن فوق الجميع وأنا متفائلٌ بالنصر ومتفائلٌ بالمستقبل، وما من قوّةٍ في هذه الأرض، تمنعنا من استرجاع حقوقنا كاملة".

القنيطرة موت مدينة، من رآها وتجوّل بين خرائبها، يتذكّر أنّه جاء لتشييع عروسة الجولان الشهيدة، ما رآه العالم في القنيطرة، لم يسبق أن رأوا له مثيلاً في أيّ مكانٍ من العالم. لم يفعل أمراء اليونان وقادتها بمن فيهم آخيل، لم يفعلوا بطروادة ما فعله الإسرائيليون بمدينة القنيطرة ولم تُحدث القنبلة الأمريكية اللعينة بهيروشيما مثلما فعلت قنابل الحقد الإسرائيلي بالقنيطرة، ولم تفعل الجحافل النازية بمدن بولونيا، ما فعله وحوش بني صهيون بالقنيطرة. القنيطرة لم تدمّر بفعل الحرب، ولم تقصفها الطائرات ولا الراجمات أو قنابل المدفعية، لأنّها لم تشهد حرباً. دمّرها الصهاينة بدمٍ بارد، دمّروها بجرّافاتهم العملاقة، لم يتركوا فيها منزلاً قائماً ولا ترى فيها جداراً كاملاً ولا سقف بيتٍ فوق أعمدته. مدينة سوّيت عمارتها بالأرض، ولا شيء يشبهها سوى خرائب أفاميا قبل عمليات الترميم.

بعد عودة موكب السيد الرئيس إلى دمشق، راحت بعض الوفود تتجوّل بين خرائب القنيطرة وأطلالها. كان سيادة اللواء، ناجي جميل، نائب وزير الدفاع وقائد القوات الجوية، ومعه بعض مرافقيه،

يتجوّلون وسط حشودٍ من الإعلاميين، وكلٌّ يسأل عن إمكانية عودة أهل القنيطرة إلى مدينتهم، أم أنّ مدينةً جديدةً ستحلّ مكانها، وما هي مشاريع الدولة المستقبلية تجاه المناطق المحرّرة في الجولان. وأسئلة كثيرة غيرها. وكان سيادته يجيب أحياناً ويصمت طويلاً. توقّف أمام صورةٍ رسمها إسرائيليٌّ لئيم على بقايا جدار. (امرأة تجلس القرفصاء فوق صينية) وإلى جانب الصورة عبارة بلغة عبرية (קחקניטרה) وأظنّ الصورة تعبّر عن نفسها ولا تحتاج إلى ترجمة، رغم أنّي ترجمتها بناءً على طلب سيادته فقال: عليهم اللعنة.

انتهت الزيارة، وعادت الوفود كلٌّ إلى المكان الذي جاء منه، واخترت العودة إلى دمشق، متّبعاً طريق القطّاع الشماليّ، مروراً ببيت جنّ، ومزرعة بيت جنّ. وقد بدأ أهالي تلك المناطق يعودون إلى قراهم التي هجروها طوال فترة الحرب. وراحوا يتفقّدون منازلهم وممتلكاتهم، في بيت جنّ وعلى يمين الطريق العام، احتشد عددٌ كبيرٌ من أهالي البلدة قرب منزلٍ، ورأيت الناس يصعدون سلّماً خشبياً وينزلون. وعلى وجوههم ملامح خوفٍ وقلق. وعندما سألت، قالوا: هناك جثّة فوق كومة ثوم ولا نعرف صاحبها، دفعني الفضول وحبّ الاطلاع للمشاهدة، فصعدت السلّم ولحق بي سائق سيارتنا، إنّها جثّةٌ لرجلٍ أشقر ملابسه تدلّ على مهنته، طيار أُسقطت طائرته، وهبط بمظلّته، وكان مصاباً نزف حتى فارق الحياة. لكنّ ثلج حرمون كفّنه بكفنٍ كثيف من الثلج، حفظ الجثّة من الفساد والتفسّخ، وبدت الجثّة وكأنّها محنّطة، جميع ملامحها ومعالمها واضحة. أخذت اسم صاحب البيت وعنوانه، ورجوته أن يحافظ على الجثّة من عبث الآخرين، وأعلمته أنّي سأخبر المعنيّين للحضور وأخذ الجثّة. وعند الوصول إلى دمشق اتّصلت بالسيد سمير الأشقر، وكان ضابطاً في القوى الجوية، وأكّدت له ما رأيت بأمّ عيني. وأخذ على عاتقه

معالجة الأمر، وأرسل من يحضر الجثّة التي دخلت ضمن صفقةٍ لتبادل الأسرى مع الجانب الإسرائيليّ.

ملعونةٌ هي الحرب وملعونٌ من يخطّط لها ويقودها، فالحرب هي الحرب (قتلٌ هنا، وموتٌ هناك، ودمارٌ في كلّ الاتّجاهات، وحزنٌ لا ينتهي، وألمٌ تطول آثاره).

-٧-

الفريق الركن عبد الكريم زهر الدين يسألني:

كيف حال السقيلبية؟

لـــي ربيـــعٌ فكِ خبّأتُـهُ مِلءَ دُنيـــا قلبـــيَ التّعـبِ
يومَ عَيناها بِساطُ السـّما والرِّمَاحُ السودُ في الهُـدُب



ذات يـومٍ مـن أواخـر شـهر آب سـنة ١٩٧٦، زارنـي في دمشـق الصديقان مخائيل أبو كرشة ورامز الأسعد، وبدون موعدٍ مسبق اقترحت عليهما زيارة زميلي، بل أخي وحبيبي الإعلاميَ الكبير

والنائب في البرلمان السوريّ، محمد غازي جريدة، ابن الجولان وعاشق القنيطرة. في حيّ المزّة جبل، انتصبت بشموخٍ بنايةٌ تتألّف من عشرة طوابقٍ، تمّ تشييدها من قبل الجمعية السكنية للعاملين في الصحافة والإعلام بدمشق، وقفنا أمام بوابة حديقة الشقّة الأرضية، وقد تحوّلت بفضل العناية إلى واحدة من جنان دمشق الجميلة، الأضواء تملأ المكان، والنوافير تنثر ماءها فوق الأشجار وغراس الورد التي جلب معظمها من بلاد الهند، وغيرها من البلدان التي كان يزورها بمهمّاتٍ برلمانية.

ذاك هو حبيبنا غازي، نراه ولا يرانا، منهمكٌ في إجراءات وترتيباتٍ معيّنة، وكأنّه على موعدٍ لاستقبال ضيوف. بهدوءٍ ضغطتُ زرّ جرسٍ الحديقة، فانتبه لوجودنا، هرع إلينا، مرحّباً وعانقنا بمحبّته الصادقة التي عهدناه عليها. جئتم على غير موعد، لكنّه الوقت المناسب. بعد نصف ساعة سيحضر لزيارتي شخصيةٌ كبيرةٌ لعبت دوراً هاماً في الحياة العسكرية السورية، وسوف أعرّفكم عليه. قلت لنشرب قهوتنا على عجلٍ ونتركك للاهتمام بضيوفك، وسوف نأتي لزيارتك في وقتٍ آخر. بل يجب أن تبقوا لأنّ بكم تكتمل فرحتي وتتمّ سعادتي، ولا أقبل منكم أيّ نقاشٍ أو اعتذار. ولن أقبل ولا أسمح لكم بالمغادرة.

في التاسعة مساءً نبّه جرس باب الشقّة بوصول الضيوف، وبعد قليلٍ عاد حبيبنا غازي مرافقاً ومرحّباً برجلٍ في الستّين ونيّف من عمره، رجلٌ متوسّط القامة معتدل البنية، جميع ملامحه تعبّر بصمتٍ عن هيبةٍ ووقار. وكانت تسير إلى جانبه سيدة أرستقراطية الملامحٍ والتعابير. توجّه إلينا بالسلام وصافحنا بكلّ هدوءٍ وتواضعٍ وتهذيب، وكذلك فعلت عقيلته.

قال غازي: كم أنا سعيدٌ بهذا اللقاء الذي يجمعني بمن أحبّ، وأشار إلينا، وبمن أحترم وأجلّ وقد أشار للضيوف. وتابع: إخوتي وأحبّتي من السقيلبية بمحافظة حماه، ويشرّفني أن أقدّمكم إلى سيادة الفريق الركن عبد الكريم زهر الدين القائد العام للجيش والقوات المسلّحة السورية، إبان الفترة الماضية، وتابع مبتسماً: طبعاً قبل ثورة آذار.

من السقيلبية إذاً، من الغاب. أنا أعرف السقيلبية وقد مررت بها أثناء عودتي من مهمّةٍ لي في حلب، وعند الوصول إلى خان شيخون، اقترح المرافقون التوجّه إلى عين الطاقة القريبة من قلعة المضيق، ومن أطلال أفاميا. وقالوا بأنّ عين الطاقة تعتبر واحدة من عجائب الطبيعة المذهلة، حيث النهر المتفجّرة مياهه والمتدفّقة بغزارةٍ وصفاءٍ وبرودةٍ من قعر جبل الزاوية، مشكّلةً بحيراتٍ صخريةٍ بعمقِ أمتار، وبإمكانك رؤية كلّ ما في قاعها لكثرة صفائها.

حقاً عين الطاقة واحدةٌ من أعاجيب الطبيعة في بلادنا، وهناك تعرّفت على نوعٍ من السمك الأسود ذو الرأس الكبير ويسمّونه السلّور. والغريب أنّ أهالي المنطقة يأكلون نوعاً شبيهاً بالأفاعي يطلقون عليه تسمية الحنكليس.

اشترينا من النوعين ما يكفي حاجتي وحاجة المرافقين، ورفض الباعة أن يأخذوا ثمن الكمية التي اشتريناها وقد عرّفهم أحد عناصر المرافقة بهويّتي، لكنّي أصرّيت على الدفع ونجحت بذلك لأن وراء هؤلاء عيالٌ ينتظرون عودتهم بما اكتسبوه من صيد نهارهم، وتابعنا طريق عودتنا قاصدين حماة، وفي الطريق مررنا ببلدةٍ كبيرةٍ تجثم فوق تلّة مرتفعة وحولها بيوتٌ متناثرةٌ وعرفنا أنّها السقيلبية. لم نطيل التوقّف فيها. لأن ليس لنا فيها من يعرفنا ليدعوننا إلى تناول القهوة أو الشاي الساخن، وهنا يتدخّل السيد غازي: لو كنت يا

سيادة الفريق طرقت باب أياً من بيوتهم لا على التعيين، لكنت عرفت من هم أهل السقيلبية، فهم قومٌ شجعان مقدامين، أسخياء كرماء منتجون لأنواع كثيرةٍ من الغلال والخيرات، وطنيون، وعشاق وطن، وهم أيضاً عشاق علمٍ وهواة ثقافة، هذا بعض ما عرفته عنهم يا سيادة الفريق. ردّ سيادته: أنعم وأكرم بالسقيلبية وأهلها. وبعد الانتهاء من لحظات المجاملة انتقلنا للتعرّف أكثر على شخصية هذا القائد العسكري الكبير.

علمنا أنّه بعد رحيل المشير عبد الحكيم عامر، إثر انفصال الوحدة بين سوريا ومصر، التي تمّت على أيدي نخبةٍ من قيادة الجيش السوري سنة ١٩٦١، قام ضباط الانفصال بانتخاب اللواء عبد الكريم زهر الدين، قائداً عاماً للجيش والقوات المسلّحة في سوريا، وفي الأول من كانون الثاني لعام ١٩٦٣، تمّ ترفيعه إلى رتبة فريق ركن. وفي عهده تمّ دخول أول صفقة طائرات روسية مقاتلة إلى الخدمة في القوة الجوية السورية، وفي عهده استرجع الجيش السوري والضباط السوريين هيبتهم وكرامتهم ومكانتهم، وهي التي تأثّرت سلباً في زمن الوحدة.

كان خادماً مخلصاً وفياً نقياً، نظيف الكفّ محبّاً لسوريا شأنه شأن الكثيرين من أبناء معروف النشامى، وعندما قامت ثورة آذار ١٩٦٣، لم يقبل أن تُراق قطرة دمّ من جندي سوري، غادر سوريا إلى لبنان وهناك عاش لسنواتٍ بين أهل زوجته اللبنانية.

لم تكن السيدة عقيلته راضية عن ممارسات زوجها. قالت: هذا الذي ترونه والذي كان يملك مقدّرات وطن بكامله، تصوّروا أنّه أمضى العمر ولم يكن يملك بيتاً أو شقّة صغيرة بدمشق، ولا يملك حتى سيارة تحمله في تنقّلاته، لقد كان يملك مقدّرات وطن، لكنّنا عشنا معه فقراء. أما اليوم تروننا نسكن في بيت دون أن ندفع أجره،

ونستخدم سيارة وهذا كان بفضل سيادة الرئيس حافظ الأسد الذي كرّم زوجي، وكرّمني مع أولادي. فاستدعانا من لبنان خلال فترة حرب تشرين، وأنا من كلّ قلبي أشكر سيادة الرئيس حافظ الأسد الذي قدّر رفيقه في السلاح وأكرمه بما يستحق ويليق.

كان الحديث شيّقاً في حضرة هذه القامة الوطنية الشامخة لكنّكم ترونني محكوماً بالاختصار، لأنّ الشيطان يقبع في التفاصيل وما بين السطور. لذا أكتفي بما حفظته ذاكرتي لكم وأختتم بأنّ العميد الركن عصام زهر الدين، أسد الحرس الجمهوريّ الطارد فلول المسلّحين من بابا عمرو في حمص، ومن جرود القلمون والتلّ وحلب، والرابض داخل مطار دير الزور العسكري، أفيدكم بأنّ هذا الضرغام هو حفيد الفريق الركن عبد الكريم زهر الدين، وبأنّ هذا الشبل من ذاك الأسد.

أعلى النموذج

-٨-

العلم الإسرائيلي والمصفحات السورية

لَمْ يَبْقَ في الليلِ إلا الصوتُ مُرْتَعِشاً
إلاَ الحَمَائِمُ إلا الضائِـــعُ الزهـــــر
هنا التُّرابَـاتُ من طِيِّــبٍ ومن طَــرَبٍ
وأيـن فـي غَيِّــرِ شامٍ يَطـرَبُ الحَجَــرُ

زيـارة مدينـة القنيطـرة غـدت البنـد الأول في برنـامج الزائـرين لسوريا، من صحفيين ومراسلين إعلاميين، وحتـى الوفود السياسية والرسميـة. وعلـى جميـع السـائحين زوار سـوريا، أن يبـدأوا بـرامج زيـارتهم للقطـر انطلاقاً مـن مدينـة القنيطـرة، للوقـوف علـى أبشـع جريمـةٍ ارتكبها الكيان الصـهيوني خـلال حـرب تشـرين ١٩٧٣، وقـد أقـدم علـى تـدميرٍ ممنـهجٍ لمدينـةٍ بكاملـها، حتـى مقابرهـا وجثـامين موتاهـا لم تسـلم مـن شـرّ الحقـد الصـهيوني. أُخرجـت مـن مدافنـها ورميت بشكلٍ همجيّ وحشـي ومرعـب علـى جوانـب الأضـرحة. وقـد رأيـت، وليـتني لم أرَ، الجثـث البشـرية منتشـرةً، ومنـاظر تقشـعرّ لهـا الأبدان، مناظر شكّلت كـوابيس ضـاغطةً فـوق صـدري، حـرمتني لـذّة الطعام وراحة النـوم لشـهور، بشـاعة تلـك المنـاظر رسـخت وانحفـرت عميقةً في ذاكرتي. فلا أكاد أنسى حتى تعاودني الذكرى مع كلّ زيارةٍ جديدةٍ بمرافقة وفدٍ إعلاميٍّ أجنبيّ إلى القنيطرة.

اليوم هو الاثنين الموافق ٢٤ حزيران سنة ١٩٧٤، والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، ومن أمام فندق السميرأميس على ضفة نهر بردى (منطقة جسر فيكتوريا) انطلقت بنا السيارة وبرفقتنا مراسل محطة الـ C.N.N الأمريكية والمصور التلفزيوني، والوجهة أوتوستراد المزّة إلى القنيطرة. بعد سعسع بقليل، عبرنا ثغرة في خط آلون، ذلك الخندق العريض العميق، الذي أقامه الإسرائيليون كخطّ دفاعٍ حصين، لمنع تقدّم القوات السورية باتّجاه الجولان، وخطّ آلون كان يقابله خطّ بارليف على الجبهة المصرية، إبان حرب الـ ١٩٧٣، خطّ آلون كان بعرض أربعة أمتار وعمق مترين، جنباته محصّنة بحقول ألغام، وهو بطول سبعين كيلومتراً على امتداد الجبهة السورية الإسرائيلية، هذا الخطّ الدفاعيّ المحصّن لم يستطع منع طلائع القوات السورية من تدميره وفتح ثغراتٍ متعدّدة، أمام الدروع والمدفعية، للوصول عشية اليوم الأول لانطلاقة حرب تشرين إلى بحيرة طبريا، والوقوف على ضفة نهر الأردن، الذي شَهد معمودية السيد المسيح على يدي يوحنا المعمدان. والذي ورد ذكره في القرآن الكريم باسم يحيى بن زكريا . دخلنا مدينة القنيطرة من بوابة خان أرنبه، وبعدها قرية الحميدية، وقد أصبحت واحدة من أحياء القنيطرة المدمّرة، وبلدة الحميدية اسمها يدلّ عليها فهي تنسب إلى السلطان عبد الحميد العصملّي في بداية القرن التاسع عشر، وقد اقتطعها للشركس المهاجرين من القوقاز هرباً من ظلم واضطهاد القياصرة الروس لهم. وأول من دخلها وسكنها من العرب، هم آل أيوب المسيحيين، وهم أجداد أخي وحبيبي الأستاذ يونس فارس أيوب، الذي عمل لسنواتٍ طوال، محرراً في مديرية الأخبار لدى إذاعة دمشق، وكان له برامج إذاعية سياسية هامة، كانت تُقدّم بعد

نشرة أخبار الظهيرة، وبصوته الدافئ العذب الذي يعبّر عن رقّة شخصية صاحبه. وذات يوم كنّا معاً في زيارة إلى القنيطرة، وقف قرب خربة في الحميدية وقال: هنا يا أخي كان بيت أهلي، وبكى على أطلال ديارٍ عاش فيها مع أهله ومع شقيقه البطل الشهيد المقدّم الركن عبد الله فارس أيوب. لذكراه المجد والخلود. اعذروني لعدم تمكّني من لجم وكبح جموح استطراداتي لغزارة ما تخزّنه ذاكرتي وتحفظه عن بلادٍ كان لي فيها أهلٌ وأحبّاء كثر.

يا طيب القلب يا قلبـــي تُحملنــــــي
هم الأحبة إن غابوا وإن حضـــــروا
هنا التُّرابَاتُ من طِيّبٍ ومن طَـرَبِ
وأين في غَيِّرِ شامٍ يَطْرَبُ الحَجَـــــــرُ

المهمّ، أنّنا قد وصلنا إلى المخفر السوريّ، وهو عبارةٌ عن غرفةٍ صغيرةٍ عليها سارية، فوقها علمٌ بحجم تلك التي يحملها تلاميذ المدارس أيام المسيرات الوطنية، وعند المخفر استقبلنا ضابطٌ سوريّ برتبة ملازم، يتقن الحديث باللغة الانكليزية، عرّفته بضيوف وزارة الإعلام، وسألته إلى أي نقطة يحقّ لنا الاقتراب منها. قال بإمكانكم الوصول إلى خيمة الأمم المتّحدة (مقرّ قوات الأمم المتحدة)، أصحاب القبّعات الزرق وأشار لنا، إلى هناك وهذه النقطة تبعد حوالي مئتي متر عن المخفر السوريّ، وإلى جانبها وعلى بعد بضعة أمتار فقط، المخفر الإسرائيليّ، سرنا باتّجاه موقع الأمم المتحدة، وبرفقتنا الضابط السوريّ، وما أن اجتزنا بضع خطواتٍ، حتى اندفع نحونا مهرولاً، أحد عناصر الفصل بين القوات، وكان زنجياً قصيراً قميئاً، وبلغةٍ انكليزيةٍ ركيكة، طالبنا بالتوقّف، والتراجع إلى المخفر السوريّ، وممنوع تجاوزه، كان هذا العسكريّ الأمميّ من البيرو في أمريكا

الجنوبية. ونشب خلافٌ حادٌ بين الضابط السوريّ وهذا العنصر الأمميّ، قال الضابط السوري: نحن في الجولان، والجولان سوريّ وهو لنا وليس من حقّ أحدٍ أن يمنعنا من الوصول إلى أيّ نقطةٍ من أرض الجولان. حماس الضابط كان في غير محلّه فهناك اتّفاقاتٌ بين الدول، وبرعاية الأمم المتحدة، وعلينا الالتزام بما توصّلت إليه قيادتنا في التفاوض مع الجانب الآخر، بوساطة هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا آنذاك. رد العسكريّ الدوليّ بأنّ علينا الالتزام وأيّ تقدّمٍ سوف يعتبر خرقاً لاتفاقية الفصل بين القوات. وعليكم تحمّل مسؤوليّته، تدخّلت وطلبت من الضابط السوريّ أن يخفّف من حماسته، وأن نلتزم بالاتفاقية. أرجوك لا تورّطنا وتورّط قواتنا من أجل صحفيّ أمريكي. لم ننل من بلاده إلا الشرّ والدمار، لكن حدث ما لم يخطر ببال، هناك في الجانب الإسرائيليّ كان يوجد رجلاً (تبيّن أنّه صحفيّ أمريكيّ، وهو مراسل لمحطة CNN الأمريكية، وهو زميلٌ لضيفنا، وكانا قد اتّفقا على اللقاء قرب مركز الأمم المتحدة، لإعداد ريبورتاجاً مصوراً حول النتيجة التي أثمرت عنها المفاوضات المكّوكية لهنري كيسنجر بين سوريا وإسرائيل. العسكري الأممي تكلّم بهاتفٍ لاسلكيّ وبعدها تغيّر الموقف واعتذر، وطلب منا التقدّم إلى أيّ نقطةٍ نشاء. فتقدّمنا ورجع الضابط السوريّ إلى مقرّه. ها نحن عند مركز الأمم المتحدة وعلى بعد أمتارٍ قليلةٍ جلس أربعة عسكريّين إسرائيليّين كانوا يرتدون ملابساً وكأنّهم على شطّ البحر. هذه هي المرة الأولى في حياتي أقف فيها وجهاً لوجه أمام عسكريين إسرائيليين وبشكلٍ مباشر، يا إلهي إنّهم بشرٌ مثلنا، والفارق أنّهم يتكلّمون العبرية، حضرت آلياتٌ عسكريةٌ جرافة، صعد إلى دلوها عسكريّ إسرائيليّ يحمل علماً، وضعه على ساريته، وقد

استبدله بعلمٍ قديمٍ مزّقته رياح الجولان. ابتعدت الرافعة وسمعت أحدهم يقول بصيغة الإيعاز وبلغته العبرية:

כולםבמצבהמתנה, חמם קחדגלהשלום

كولامبمتساف ها ميتنا , حَمم , كح ديكل ها شالوم

وترجمتها : الجميع بوضع الاستعداد، استَعد، للعلم سلام خذ، وراحوا ينشدون نشيدهم الوطني:

כל עוד בלבב פנימה
נפש יהודי הומיה
ולפאֲתי מזרח קדימה
עין לציוןצופייה –

עוד לא אבדה תקוותנו
התקווה בת שנות אלפיים
להיות עם חופשי בארצנו
ארץציון וירושלים.

وتعريب كلماته:

(طالما في القلب تكمن نفس يهودية تتوق وللأمام نحو الشرق عين تنظر إلى صهيون، أملنا لم يضع بعد أملٍ عمره ألفا سنة، أن نكون أمّة حرّة في بلادنا بلاد صهيون وأورشليم)

هذه الكلمات استدعت إلى ذاكرتي، صورة وصوت الدكتور ربحي كمال، وهو يحاضر فينا ونحن نتابع دورة التأهيل كمذيعين باللغة العبرية، حدّثنا وقتها عن قصيدة: ها تكفاه، الأمل التي كتبها الشاعر نفتالين هيرتس أواخر القرن التاسع عشر، وهو يهودي من أوربا الشرقية. وهذه القصيدة مأخوذة عن أغنية شعبية مولدافيه، وبنفس اللحن الذي تُغنّى به. هذه القصيدة هي التي جعل منها

الصهاينة نشيداً وطنياً لهم. أذكر هذه الأمور من باب التعريف بالعدوّ. لأنّ الانتصار على العدوّ يكمن في كثيرٍ منه على معرفته ومعرفة طريقة تفكيره.

لفت نظري حضور آلياتٍ عسكرية، مصفّحات وناقلات جنود وقد اعتلاها بشكلٍ مكشوف، عددٌ من الجنود الإسرائيليين، وراحت هذه الآليات تتجوّل أمامنا جيئةً وذهاباً، والجنود يلوّحون ببنادقهم، كان هذا عند سفح تلّ أبو الندى، الذي كان يوصف بحارس القنيطرة. يا إلهي وهل يستحقّ وجود اثنين مدنيين مجرّدين من السلاح كلّ هذا الاستعداد العسكري؟ لا أفهم ما يجري، أنهى مراسل الـ CNN التصوير، وعدنا إلى دمشق إلى مقرّ وزارة الاعلام، وتحدّثت إلى مدير الرقابة في الوزارة عما حصل، قبل أن أقدّم تقريري المكتوب عن الزيارة، فاستهجن المراقب الحالة، وانتابته الوساوس والشكوك، وطلب من المراسل تقديم الفيلم للمراقبة، وبعد المراقبة تبيّن أنّ الآليات العسكرية التي كانت تتجوّل أمامنا، ما هي سوى آلياتٍ سورية (من الغنائم)، تمّت مصادرة الفيلم، وإبعاد المراسل والمصوّر، مع التوصية بمنع زيارتهم إلى سوريا ثانية. وهكذا انتهى مشهد هذا اليوم بتجديد تأكيدي على كراهية الفرنسيين واحتقاري للأمريكيين، الذين صدق الإعلام الإيراني حين وصفهم بالشيطان الأكبر.

-٩-

ولكنها مجرد صدفة

(١ - ٢)

لبنان يا قطعة سما	عالأرض تاني ما ألها
لوحات الله راسمها	شطحات أحلى من الحلى

في شهر شباط من سنة ١٩٧٧ كنت لا أزال أقضي فترة خدمة العلم في قسم الحرب النفسية، التابعة للإدارة السياسية بدمشق، وفكّرت حينها القيام بزيارة إلى الأصدقاء والأقارب في لبنان، للوقوف على أحوالهم في حمأة الحرب الأهلية المجنونة، وما فعلته بهم، انطلقت من دمشق إلى منطقة المصنع، ثمّ إلى شتورة، ومنها إلى حمّانا الساحرة، وكان لي فيها ابن عم (النقيب الياس موسى قندراق) الضابط في سلاح المدفعية السورية، قضيت في ربوع حمّانا يوماً كاملاً، لم تشبع عيني من سحر مناظرها وجمال طبيعتها وكثرة مياهها وروعة بنيانها وجلال وجمال قبب كنائسها، حينها تمنّيت لو أنّ اللّه خلقني في هذه البلدة الرائعة الجمال. كان الجوّ بارداً وأشجار الصنوبر تلقي بأكوازها الناضجة على الأرض، وما عليك إلا أن تمرّر هذه الأكواز فوق لهب النار المتّقد في أغصان الصنوبر اليابسة، ذات الرائحة العطرة كالبخور، لتجد أنّ أكواز الصنوبر المنغلقة على ثمارها قد بدأت تتفتّح وتلقي بثمراتها الشهية بين يديك.

وفي صباح اليوم التالي غادرنا حمّانا إلى بحمدون، بلد القصور، التي لم يرد في حكايات الألف ليلة وليلة ما يضاهيها فخامة، لم ترق لي بحمدون، ورأيت في قصورها والتي هي في معظمها إن لم تكن جميعها لأعراب الخليج، بدت لي وكأنّها سجونٌ مغلقة على نزلائها، لا أثر لحياة فيها، ورحت أترحّم على ميسون الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان، ابنة بلدة القريتين (حمص). القريتين التي كانت حاضرة راقية متمدّنة يسكنها الكلبيون وهم من أشراف العرب المسيحيين. ميسون أم اليزيد التي نقلها معاوية من رحاب القريتين إلى قصور الأمويين في دمشق، تذمّرت وبكت وحنّت إلى أوطانها، وهي التي لم تغريها قصور بني أمية، على نسيان أيامها وحياتها في القريتين. فأنشدت معبّرة عن حنينها إلى بيت أهلها، وهي تقول بمطلع قصيدة طويلة:

لبيت تخفـــق الأرواح فيــه أحب إليَّ من قصـــر منيـــف

ولبس عباءة وتقـــر عينـــي أحب إليَّ من لبس الشفـــوف

قبل بيروت مررنا بمنطقة الفيّاضية، وهي مقرّ وزارة الدفاع اللبنانية، انعطفنا إلى اليسار ودخلنا في غابة صنوبر. وعلمت من الياس أنّنا ذاهبون لزيارة ابن عمّنا الضابط في الجيش اللبناني وهو إبراهيم بن شحادي منصور (اسبيّر). وقفت بنا السيارة أمام بناء مؤلّف من عدّة طوابق، كُتب على جدارها: الرفاق الكتائبيون، هذا المبنى خاص بالكتائب، يُمنع قصفه أو استهدافه، وقتها لم نكن كسوريين على وفاق مع الكتائب، وبيننا وبينهم عداوة وخصومات، عتبت على الياس كيف يحضرني إلى مثل هذا المكان المسكون بالخصوم والمحاط بالمخاطر، خاصةً وأن لباسنا العسكريّ يدلّ على

هويّتنا وانتمائنا إلى الجيش السوري، فردّ الياس: نحن هنا في مأمن، ولا يجرؤ أحد على مسّنا بسوء.

في الطابق الثاني من هذا المبنى الكبير، شقّة يسكنها مجموعة من الضباط اللبنانيين، جميعهم مصابين في المعارك فهذا يضع ضماداً فوق إحدى عينيه، وثانٍ يعتمد في تنقّله على عكّازات، وثالث يحمل ذراعه فوق صدره. كانوا خمسة شباب وجميعهم يعانون من إصابات متفاوتة. وبعد استراحة قصيرة أخبرنا إبراهيم بأنّنا ذاهبون لزيارة أهله في بلدة منيارة بمحافظة طرابلس، طلب منّا أن نتّخذ أعلى درجات الحيطة والحذر، وبخاصة أثناء دخولنا المخيمات الفلسطينية. (مخيّم البداوي) فهؤلاء يصنّفون السوريّين بالأعداء ولا يتورّعون عن إلحاق الأذى بمن يقع بين أيديهم من السوريين وبخاصة العسكريين -قريبنا إبراهيم هو الذي أصبح لاحقاً برتبة عقيد ركن، وأوكلت إليه حماية وحراسة السيد رئيس الجمهورية، وكان وقتها السيد الرئيس إلياس الهراوي- عندما دخلنا المخيّم كانت المنظّمات العسكرية الفلسطينية منشغلة بذاتها، وسمعنا أصوات إطلاق نار كثيف وصنوف أخرى من الأسلحة الفردية. عبرنا وشكرنا اللّه أنّنا تجاوزنا المخيّم بسلام وأمان. وصلنا طرابلس ومن حيّ التبانة - طريق الشام - قصدنا منيارة حيث بيت عمّي شحادي منصور (اسبيّر): قضينا ليلتنا هناك، وعند الصباح أيقظنا عمّي شحادي وطلب منا مرافقته إلى الكنيسة لحضور صلاة الأحد، اعتذرت وذهب النقيب الياس برفقة عمه، ضابط سوري برتبة نقيب في كنيسة منيارة وهو ضيف لشحادي منصور، أمر يدعو إلى التفاخر وشوفة الحال، وعمّنا كان شديد الحرص على أن نرافقه إلى الكنيسة، ليقدّمنا إلى أبناء بلدته، علماً أنّ لعمّنا إبناً ضابطاً برتبة عقيد وهو قائد اللواء السادس في الجيش اللبناني، لكنّ حضور

النقيب السوري أمرٌ له شأن، لا يدرك قيمته سوى اللبنانيين خلال فترة الحرب، كان لزيارتنا إلى بيت عمّنا في منيارة أثرها الكبير على جميع أبناء البلدة التي شهدت زيارة ضابط سوري، فالزيارة منحت أهلنا هناك قيمة وحصانة.

عدنا إلى بيروت، وقد اطمأنّت قلوبنا أنّ جميع أهلنا وأقربائنا هناك جميعهم سالمين، عدا بيت العقيد رامز منصور ابن عمّنا شحادي في طرابلس، قد تعرّض للحرق من قبل فئة مذهبية جاهلة حاقدة، وضعتنا السيارة وسط بيروت، ساحة البرج، يا للهول، ما الذي جرى؟ دمار هائل، الأبنية العالية على امتداد النظر، هياكل محترقة مثل جثثٍ بشرية تقف أمامك بأفواهٍ فاغرة، ومحاجر بلا عيون، ورائحة الموت تملأ المكان. هنا مكان الرعب، هنا ترى وحشية الإنسان، هنا تتجسّد العداوات، هنا الكلّ ضدّ الكلّ، والكلّ يرفض الكلّ، أهذه بيروت؟ أيعقل أن تكون هذه مدينة القانون والتي علّمت الدنيا الحقوق؟ أهذه لبنان بلد أحيرام ملك صور؟ أهذه هي فينيقيا التي منها انطلقت شعلة الحضارة لتطوف دول ما وراء البحار؟ أهذا هو لبنان الذي منه انطلقت أليسار لتبني أرقى حاضرة في شمال أفريقيا قرطاجة، وإليها ينتسب هاني بعل قاهر روما؟ ما أراه يجعلني أؤكّد أنّ لبنان عامّةً، وبيروت خاصةً، ميدان يتنافس فيه أمراء الحرب، كلٌّ من أجل مصلحته، وما من أحد يعنيه الشأن العام. لماذا فعل اللبنانيّون كلّ هذا بلبنانهم؟ لأيّ ذنبٍ صلبوه؟ ولماذا أمعنوا في تعذيبه؟ أهذه هي ثمرات الديمقراطية؟ أهذه نتائج الحرّيات السياسية؟ كذبة أنت يا لبنان، وهل الذي أراه هو لبنان الذي غنّاه وديع الصافي:

لبنان يا قطعة سما   عالأرض تاني ما ألها

لوحـــات اللـــــه راسمهـــا   شطحات أحلى من الحلــــى
عالطامعين محـــرّمهـــا   وللخـــاشـــعيـــن محـلّلها

ترانـا الآن بوسـط بـيروت، في سـاحة الـبرج، ننتظـر مـن يحملنـا وينقلنـا بسـيارته إلى خـارج بيروت، إلى طريـق الشـام. عبرت بجانبنـا سيارة مكشوفة كُتب عليها النمور الأحرار، وفي داخلها أربعـة شـباب، من عيار الوزن الثقيل، ينتمون إلى ميليشيا الـرئيس اللبنـاني الأسـبق كميل شمعون، يحملون أسلحةً رشّاشـة، توقّفت بعد أن اجتازتنـا، ثمّ عادت إلينا، كان بنيّتهم تنفيذ عمليـة خطـف، خاصـةً وأنّنـا مـن أشـدّ أعـداء أتبـاع كميل شمعـون، لكنّنـا نجونـا بعنايـةٍ إلهيـة، وأرجـو أن لا يسألني أحد كيف نجونا، إنّها العناية الإلهية.

انتهت زيارتي إلى لبنان في شتورة ثانيةً، وعدت إلى دمشق، أحمل بيدي كيساً أنيقاً في داخله (كروز دخـان مـارلبورو أمريكـي، وزجاجـة ويسكي جون ووكر بلاك اسكتلندية، وعبوة عطر لندنيـة مفضّلة مـن نوع أولد سبايس)، وثمن كلّ واحدةٍ ممّا ذكـرت خمـس وعشـرون لـيرة سـورية. ومجمـوع مـا دفعتـه في شـتورة كـان خمسـة وسـبعون لـيرة سورية. لا شكّ كان هذا المبلغ كبيراً آنذاك.

-١٠-

ولكنها مجرد صـدفة

(٢ - ٢)

يســعد صباحك هالحلو يل أنت للدنيا صبــاح
رؤوس الجبال تكحّلــوا بالنور وتــنفضّ جنــاح
بلبل حلو ياما الــه صابر على جنون الريــاح
عرم بريش اللي بلله قطر الندي ترغل وصاح
لبنان يا قطعة ســما اسمك على شفايـﱢ صلاة

أنا لم أقتل كمال جنبلاط لكنّها الصدفة:

غادرت مكتبي ﭬ قسم الحرب النفسية بالإدارة السياسية، لزيارة زميلي الصحفي محمد غازي جريدي. وكنّا قد درسنا الصحافة معاً وتخرّجنا معاً، وها نحن ﭬ خدمة العلم معاً، ولكلّ منّا مهمّته. أمّا المهمّة التي أوكلت لغازي، فكانت رئاسة تحرير جريدة الراية الموجّهة خصّيصاً إلى قوّاتنا المسلّحة العاملة ﭬ لبنان، واستمع منّي إلى الانطباعات والانفعالات والأفكار التي تكوّنت لديّ من خلال زيارتي ومشاهداتي ﭬ لبنان، قال: أريدك أن تشاركنا ﭬ تحرير جريدة الراية، وأن تكتب، وأنا أعرفك جيداً، وأعرف مدى قدرتك

على الكتابة الناجحة. وجميع زملائك في معهد الصحافة يشهدون لك بذلك.

قلت له: قد أستجيب لرغبتك في الكتابة، ولكن بشرط، أن تُنشر كتاباتي كافتتاحية للجريدة. وأنا أعرف أن هذا الأمر تترتّب عليه مسؤولية سياسية حسّاسة، وأعرف أنّ هذا من اختصاص وعمل رئيس التحرير حصراً، ولكنّي لا أمانع أن تنشر الافتتاحية من دون أن تحمل توقيعي، وافق، وكان ذلك اليوم ١٤ آذار سنة ١٩٧٧، على أن أُقدّم افتتاحيّتي لتُنشر بتاريخ ١٥ آذار.

لملمت أفكاري وانطباعاتي وملاحظاتي، وفعّلتُها معاً، وأطّرتها بعتبٍ لم يخلُ من لهجةٍ حادّة حيناً، ونبرةٍ عاليةٍ أحياناً.

وأسقطتها على أمراء الحرب (زعماء الأحزاب في لبنان)، لم أستثنِ أحداً ممّن أوصلوا لبنان إلى الهاوية، وكان عتبي الأكبر على الأستاذ كمال جنبلاط، المفكّر والفيلسوف، ومؤسّس الحزب التقدّمي الاشتراكي، وعضو الاشتراكية الدولية، عتبي عليه كان الأكبر والأشدّ، وهو الذي كنت أرى فيه المُخلّص والمنقذ للبنان من مستنقعه الطائفيّ، والانتقال به إلى دولة العلمانية دولة لبنان الواحد الموحّد، وجميع أبنائه يخضعون لدستورٍ واحد، يساوي بين الجميع في الحقوق والواجبات. لبنان الذي لا فضل فيه للبنانيّ على لبنانيّ إلا بقدر ما يقدّمه لرفعة لبنان، وتحقيق سعادة أهله، لكنّ ثقتي كانت في غير موضعها، وأنّ جنبلاط اتّخذ من التقدّمية والاشتراكية، وتبنّي اليسار ستاراً يخفي وراءه حقيقة نواياه غير المعلنة، ولم يكتفِ بذلك إنّما قرَّب إليه المنظّمات الفلسطينية الدينية والمتطرّفة، واحتضنها وتبنّى الدفاع عن حمل سلاحها فوق أرض لبنان، وكانت غايته استخدام البندقية الفلسطينية لا من أجل تحرير فلسطين، وإنّما لاستخدامها في تصفية حسابات قديمة له مع منافسيه وخصومه

القـدامى، كانـت الافتتاحيـة بعنـوان (دون كيشـوت لبنـان، فـارس الأوهـام) وفي العنـوان إشـارة واضحـة للسـيد كمـال جنـبلاط، قـدّمت المقالـة لـرئيس التحريـر، وعنـدما تصـفّحها قـال: ليتـك اكتفيـت بالتلميح، ولم تأتِ على ذكـر الأسمـاء صـراحةً، لكنّـي سأنشـرها كمـا هـي.

بتاريخ ١٥ آذار ١٩٧٧، نُشرت الافتتاحية في جريدة الراية، وتمّ توزيعها وتعميمها على وحداتنا العسكرية العاملة في لبنان، وبتاريخ ١٦ آذار ١٩٧٧، تناقلت وسائل الإعـلام علـى اختلاف أنواعهـا نبـأ اغتيال كمال جنبلاط مع اثنين مـن مرافقيـه (فـوزي شـديد وحـافظ الغصيني)، على طريق بعقلين، دير دوريت في كمين مسلّح.

قبل الاغتيال، زار جنبلاط دمشق، والتقى السيد الرئيس حافظ الأسد، وطلب منه تقديم المساعدة العسكرية لميليشياته، ومـن معهـا مـن منظّمـات فلسـطينية ويسـارية، المحاصـرة لمدينـة زحلـة بقصـد تركيعها، وإنهاء الوجود المسيحي، وتصفيته في لبنان. استهجن سيادة الرئيس حـافظ الأسـد هـذا الطلـب وقـال: نحـن لا نوافـق علـى كسـر المسيحيين، وقهـر إرادتهـم في وطنـهم باسـتخدام القـوة، ولا نقبـل أن نكون إلا مع الجميع علـى حدٍّ سـواء، والهدف الأول مـن وجودنـا هـو إنقاذ لبنان، وإخراجه من أزمته ومحنته، لا أن نكـون مـع هـذا الفريـق ضدّ الفريق الآخر. رُفضَ طلب جنبلاط، وفهم ما يجـب عليـه فعلـه، وانتهى الحصار لمدينـةَ زحلـة وقـد اسـتمرّ أسـابيع، اعتقـد الـدروز أنّ المسـيحيّين وراء عمليـة الاغتيـال، فهـاجموا القـرى المسـيحية في الشـوف، وحرقـوا بيـوتهم، وقتلـوا ١٤٤ مواطنـاً مسـيحياً، وهنـاك مـن حمَّل سوريا المسؤولية، وتغاضوا عن الفاعل الحقيقـي إسـرائيل، نعـم إسـرائيل والمخـابرات الإسـرائيلية هـي المسـتفيد الأكبر مـن الاغتيـال، وفعـلاً حقّـق الإسـرائيليّون مـا خطّطـوا لـه، أوقعـوا منطقـة الشـوف

والجبل في أتون حربٍ مدمّرة، واستراحوا من احتضان جنلاط للسلاح الفلسطيني المتنامي في لبنان، والذي كاد أن يشكّل خطراً يهدّد مستوطناتهم على الحدود مع لبنان، والهدف الثالث، إرباك القيادة السورية وإشغالها بقضايا جانبية، ومنعها من تحقيق الهدف الذي دخلت من أجله إلى لبنان. انتشال لبنان الغارق في محيط الحرب الأهلية، والمحافظة على وحدته وسيادته واستقلاله.

أمريكا ومعها أوروبا، يعرفون من نفّذ جريمة الاغتيال، لكنّهم التزموا الصمت، وحدها دول الخليج اتّهمت سوريا، لغاياتٍ خبيثة تفيض من نفوسهم الخبيثة. والإناء دائماً ينضح بما فيه. المهمّ لست أنا الذي قتل كمال جنبلاط، وأن يتوافق صدور الافتتاحية مع وقوع حادثة الاغتيال، كان مجرّد صدفةٍ غير حميدة الجانب.

من هو كمال جنبلاط؟ هو كمال بن فؤاد جان بولاد، من أصل كرديّ، ومعنى الاسم جان بولاد (صاحب الروح الفولاذية) وأنّ أجداده قدموا إلى لبنان من تركيا في العهود الأيوبية. تزوّج كمال جنبلاط من الأميرة مي أرسلان، ابنة الأمير شكيب أرسلان وأمّها شركسية، وهي شقيقة الأمير غالب أرسلان، وشقيقتها تُدعى الأميرة ناظمة أرسلان، ويقال أنّ الأميرة مي هي التي صنعت الزعامة الجنبلاطية، وهي التي منحت آل جنبلاط زعامة لم يملكونها من قبل.

كمال جنبلاط (١٩١٧ - ١٩٧٧)، مفكّر وفيلسوف ومتصوّف، كان يمارس رياضة اليوغا الروحية، مؤسّس الحزب التقدّمي الاشتراكي، وله أربعين مؤلّفاً في السياسة والأديان وآداب السلوك.

أحد أهمّ زعامات لبنان خلال فترة الحرب الأهلية، وأحد زعامات الطائفة الدرزية.

-١١-

زقاق القيمرية

(١ - ٤)

لِي فيـكَ يا بَـرَدَى عهــدٌ أعيشُ بِـهِ
عُمــري ويسرِقُنــي مــن حُبِّـهِ العُمُــرُ
عهدٌ كآخرِ يـومٍ فــي الخريــفِ بكى
وصــاحِبَـــاكَ عليـــه الريــحُ والمَطَـرُ

هـو الطريـق الـذي كنـت أسـلكه يوميـاً، في الـذهاب إلى معهـد الصـحافة والجامعـة، وأعـود مـن خلالـه إلى بيتي في حـيّ القيمريـة، ففي كلّ خطوةٍ لي وقفة، ومع كلّ وقفةٍ لنا فيها ذكرى بل ذكريات.

يبدأ المشوار انطلاقاً من ساحة باب توما، التي يتوسّطها بابٌ أثريّ قديم، هـو أحد أبـواب دمشـق السـبعة، ويُطلق عليـه اسـم بـاب توما، نسبةً إلى الملك الروميّ الذي كان يحكم دمشق، وهو الذي يرمز إلى كوكب الزهـرة، وكـان علـى كـلّ بـاب مـن أبـواب دمشـق السـبعة، مجسّم لكوكب من الكواكب السبعة، ويُسمّى باسمه.

هنا في ساحة باب توما، ينتهي مطاف باصات النقل الداخلي، الخاصـة بنقـل ركـاب القصـاع إلى جهـاتٍ مختلفـة مـن دمشـق، في الساحة وقبل الدخول بطريق باب توما المرصوف بالحجارة البازلتية

السوداء الجميلة والذي يتّجه جنوباً إلى القشلة، ترى بناءً دمشقياً قديماً فيه عليَّة تطلّ على الساحة، هنا سكن وعاش الفنان السوري (من أصل أرمني) سلّوم حداد أثناء دراسته في كلّية الفنون الجميلة، وكان عضواً في فرقة المسرح الجامعي وأذكر أنّني في عام ١٩٧٠، وقبل أن يسطع نجم سلّوم حداد ليصبح زير الدراما العربية، حضرت له عرضاً مسرحياً في مسرح القبّاني بدمشق، وكان العرض بعنوان (رسول من قرية تميرة يستفهم عن قضايا الحرب والسلام) شارك في التمثيل، سلّوم حداد ورشيد عساف، ومحمد حوراني. والمسرحية ساخرة تناولت بالنقد اللاذع حال العرب بعد هزيمتهم في حرب حزيران ١٩٦٧ مع إسرائيل، التي احتلّت الجولان وسيناء بما فيها قناة السويس وغزّة والضفّة الغربية بكاملها، في مسرح القباني جلست في الصفّ الثاني، وكان الصفّ الأول محجوزاً ومخصّصاً للضيوف الرسميين والنقاد، وعندما انطفأت الإضاءة في القاعة، وسقطت الأضواء على المسرح، في هذه الأثناء حضر من شغل مقاعد الصفّ الأول. ولم نتمكّن من تمييز ملامح الحضور والتعرّف عليهم، إلا بعد انتهاء العرض وعودة الإضاءة إلى قاعة المسرح، من بين الحضور كان النقيب رفعت الأسد، وعندما أصبحتُ خارج قاعة المسرح، مددت يدي إلى الجيب الداخلي من سترتي لإخراج علبة السجائر، فانقضّ عليّ مرافق النقيب، وأمسك بقبضته الفولاذية يدي وعلبة السجائر، فأخذها ورماها بعيداً، وعندما تأكّد أنّها مجرّد علبة سجائر، نظر في وجهي ونطق بكلمات الاعتذار – آسف– وتابع سيره خلف السيد النقيب.

في بداية طريق باب توما، وعلى الضفّة اليمنى تفوح رائحة السمك البحري من دكانٍ يبيع أصناف كثيرة ومتنوعة من السمك والكائنات البحرية الغريبة، بما فيها سمك التونا. وتمتزج رائحة

السمك بعبق رائحة البنّ المطحون مع حبّ الهال المنعش. المنطلقة من دكانٍ صغيرٍ بجوار بائع السمك. هنا يبدأ المشوار في زقاق القيمرية، فتعبر من أمام كاتدرائية الأرمن، وهي واحدة من روائع الكنائس الدمشقية، وفي أحد أيام الآحاد دفعني فضولي للدخول مع المصلّين الأرمن إلى داخل كنيستهم، للتعرّف على طقوس صلاتهم، جلست على مقعدٍ خشبيّ أنيق، فوقه كتب وكراريس ونشرات، وجميعها باللغة الأرمنية، فلا أنا قرأتها ولا فهمت كلمةً مما يقوله الكاهن، لكنّي كنت أرسم شارة الصليب كما هم يفعلون، وهذا لا يكفي، فنحن مختلفون، ما دمنا مختلفون باللغة، وشعرت بغربتي عنهم، وأنّهم غرباء بالنسبة لي وأنّ اللغة هي رابطة القربى التي تقارب ما بين النفوس والعقول، وتوحّد ما بين المشاعر والعواطف، وتعبّر عن أفكار الناطقين بها.

بعد كاتدرائية الأرمن، تمرّ بساحة يطلّ عليها مشغلٌ لصناعة أعواد العزف، وعلى جدرانه عُلّقت أشكالٌ وأحجامٌ كثيرةٌ ومتنوّعة، وصور لفنانين عرب كبار، محمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش، ومحمد القصبجي، وغيرها من صور لأشخاصٍ لم أتعرّف على أصحابها. المشغل يوحي بالفرح الموعود، وبالسعادة التي يعيشها كلّ من يسمع العزف على أوتار القلوب. وإلى جانب هذا المشغل حمّام البكري، وقد زرته برفقة المرحوم الياس شاهين أبو بسام، وكان يدرس سنة أولى حقوق، ومعنا نورس نصّار. ولا تزال صورة تلك الزيارة ماثلة أمام باصرتي. ويأخذني الضحك وأنا أرى المكيّس منهمك في دعك وتكييس ظهر أبو بسام، وكيف كان ذلك اللعين، يضرب بكفّه فوق ظهر أبو بسام، محدثاً صوتاً قوياً له ضجيج، وأبو بسام في كلّ مرّةٍ، ينظر إلى هذا اللعين وهو يقول: خلّصنا بقا، هريتنا يا رجل، أنت عم تكيّسنا ولا عمالك تعاقبنا؟ وعند الانتهاء

يقدم شخصٌ آخر، يلفّ رؤوسنا وأجسادنا بمناشف ملوّنه، ونجلس فوق مصطبةٍ لنتناول الشاي، وأمامنا نافورة جميلة تنثر رذاذ الماء البارد ليلطّف من حرارة أجسادنا، التي كادت تشتعل عندما كنّا في الجوّاني، الذي لا يُطاق لشدّة حرارته. المستحمّون فوق مصاطبهم، يبدون وكأنّهم دمى وألعاب في واجهة عرض للبيع، والدمية الأكبر والأغلى، تلك التي كان يمثّلها أبو بسام، على روحك نقرأ السلام، كم كنت لطيفاً ورقيقاً وكريماً طيّب الله ثراك، وقد رحلت باكراً، وخلّفت في نفوس محبّيك غصّةً لا تغيب.

زقاق القيمرية

(٢ – ٤)

لِي فيكَ يا بَرَدَى عهدٌ أعيشُ بِـــــهِ
عُمري ويسرِقُني من حُبِّهِ العُمُــرُ
عهدٌ كآخرِ يومٍ في الخريفِ بَكَـــى
وصاحِبَاكَ عليه الريحُ والمَطَـــــرُ

يجاور حمّام البكري من جهته الجنوبية، بيت دمشقي قديم، واسع المساحة، ومتعدّد الغرف، ويسكن فيه عدّة أُسر. وفي هذه الدار، كنت بين الحين والآخر أزور الصديق وزميل دراسة الفلسفة الأستاذ توفيق الحلاق، وهو من بلدة دير عطية، وجميع الساكنين لهذا الحوش من دير عطية ويبرود والنبك. ذاعت شهرة توفيق الحلاق كإعلاميّ، من خلال تقديمه برنامجاً تلفزيونياً، بعنوان السالب والموجب استمرّ عشر سنوات (١٩٧٦ – ١٩٨٦). البرنامج الذي تناول أعقد القضايا الاجتماعية التي يعانيها المجتمع السوري في الريف والمدينة، وإذا كان برنامج الإعلامي اللبناني الكبير جورج قرداحي: المسامح كريم يهتمّ بمعالجة قضايا شخصية، وعلى مستويات فردية. فبرنامج الأستاذ توفيق حلاق كان يتناول القضايا ذات البعد الاجتماعي، وتأثيراته الواسعة، كنت معجباً بوسامة وقوة شخصية الصديق العزيز.

توفيق الحلاق، ومنذ زمنٍ بعيد، لم أسمع شيئاً عن أخباره، فقط علمت أنّه يعمل في محطّاتٍ تلفزيونية خليجية. والبعد جفاء.
ألا ترون معي أنّ الدمشقيّين تركوا دمشق القديمة، وسكنوا في الضواحي (دُمّر وقدسيا وبرزه والمزّة، بالإضافة إلى الأحياء الراقية مثل التجارة وحيّ القصور وأبو رمانة والمهاجرين وحيّ المالكي) وسُكنت دمشق القديمة من قِبل الوافدين من جميع مناطق الريف السوري وبشكلٍ خاصّ، من منطقة القلمون وريف حمص من أبناء وادي النصارى وقرى حوران والسويداء.

ليس بعيداً عن البيت الذي كان يسكنه توفيق حلاق، بيت دمشقيّ صغير، يعيش فيه الصديق الإعلامي ميشيل طبرة مع أسرته الصغيرة، وميشيل من إحدى قرى سهل حوران يعمل لدى إذاعة دمشق، وتابع معنا الدراسة في دورة إعداد مذيعين باللغة العبرية. كان هذا قبل أن يتحوّل إلى سلك الكهنوت لدى الكنيسة الكاثوليكية، وينتقل للعيش في صيدنايا، خادماً للّه في كنائسها، كان يحتفي بكلّ من يزور صيدنايا من أهلنا في السقيلبية، ويخصّهم بالرعاية والاهتمام، ويُحمّلهم تحياته وأشواقه إلى صديقه السقيلباوي الذي هو أنا،

أذكر عنه:

طبقة صوته مولّفة على الترانيم البيزنطية- وكان هذا قبل أن يُصبح كاهناً- طلبتْ منه السيدة وصال سمير رئيسة قسم اللغة العبرية في إذاعة دمشق، ومدرّسة مادة القراءة الإذاعية، طلبت منه أن يقرأ نصّاً مكتوباً، فبدأ. ساد الصمت، وخيّمت حالة من الحزن الشديد على الحضور، كادت توصلنا إلى حدّ الانفجار بالبكاء، لكنّ السيدة وصال انفجرت بنوبةٍ من الضحك الهستيريّ، ولم تعد تملك القدرة على ضبط ذاتها، ولما كان الضحك حالةً نفسيةً تنتقل

بالعدوى -مثل التثاؤب- انفجرت القاعة بالضحك، كانت السيدة وصال، تضحك على قراءة ميشيل، ونحن نضحك على ضحك المدرّسة السيدة وصال، التي وضعت يسارها فوق فمها، ومسكت معدتها بيمينها، وخرجت من القاعة مهرولة لتتحرّر من حالة الضحك الهستيرية التي سادت القاعة. وقف ميشيل متطلّعاً حوله تُرى مالذي فعلته؟ أنا لم أُخطئ، فلماذا كلّ هذه السخرية؟

فعلاً ميشيل لم يُخطئ بالقراءة، وإنّما وضَعنا في حالة مأتمية وكأنّه يقرأ فصلاً من مراثي أرميا الذي يصف راحيل وهي تندب أبناءها. بعد التخرّج لم أر ميشيل، وإنّما علمت ممّن زاروا صيدنايا من أهلنا في السقيلبية أنّه كاهن، ويبلّغني السلام ويدعوني لزيارته.

نتابع سيرنا في زقاق القيمرية، والذي لم يزد عرضه على أربعة أمتار، وهو لا يتّسع لمرور سوى سيارة واحدة مع المارّة الذين يتوجّب عليهم السير رتلاً أحادياً، كي لا يشكّلوا عرقلة في حركة المرور.

ها هو المعلّم اصطفان، بقامته الطويلة، ونظارتية السميكتين، يمسح وجهه بكفّيه وهو يقف صباحاً عند مدخل مشغله الخاص بصناعة التوابيت، التي تراكمت فوق بعضها بأشكالها وألوانها وأنواعها ومستوياتها من حيث القيمة، لم أذكر أنّني حيّيته في حياتي، وكنت أتشاءم في كلّ مرّةٍ أمرّ بها من أمام مشغل المعلّم اصطفان -شريك عزرائيل- كنت أميل بوجهي كي لا أراه، وأذكر أنّه في ذات يوم، عندما أصبحت قريباً منه رفع صوته بالدعاء (يا رزاق، يا كريم). العوذ بالله، سترك يا ربّ، ورحت ألوذ بقوة الله، وأقرأ في صمتي أبانا الذي في السموات إلى حدّ القول ونجّنا من الشرّير آمين. لم يكن في نظري شريراً يضاهي المعلّم أصطفان -شريك عزرائيل- ولا أخفيكم أنّني كنت أستعين بقراءة الفاتحة وآياتها الكريمة، ولم أكن وقتها قد حفظت آيات سورة الكرسي. لكن أمثال المعلم اصطفان

كانوا سبباً في حفظي الإنجيل المقدّس، والقرآن الكريم. وتبقى الحقيقة تلك التي عبّر عنها كعب بن زهير في قصيدة البردة: وهي التي كنت أحاول إقناع نفسي بها:

كلّ ابن أنثى، وإن طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول

وهذه الآلة التي يحتاجها كلّ حي، إنّما هي تلك التي يصنعها المعلّم اصطفان وزملائه غير الكرام. وفي كلّ مرّة أمرّ بها من أمام مشغل المعلّم اصطفان، تراني أُحدّث نفسي بما قاله أبو العتاهية:

سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عيني كلّ حيّ علم الموت يلوح
نُح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
لتموتن ولو عمرت ما عمَّر نوح

فهذه هي الدنيا، وهذا منتهى كلّ حيّ، ما لحيٍّ من بقاء.

زقاق القيمرية

(٣ – ٤) ساحة الدوامنه

قلت أنّه في كلّ خطوةٍ خطوتها في زقاق القيمرية لي وقفة، ومع كلّ وقفةٍ، ذكرى تبوح اليوم بأسرارها، بعد أن نتجاوز مشغل المعلّم اصطفان، وقبل الوصول إلى بيتي بقليل، تستوقفني ساحة الدوامنة، حيث كان يتجمّع باعة الحليب الطازج، المأخوذ مباشرةً وأمام عينيك من حلمات الماعز الشامي، وأعتقد أن تسمية هذه الساحة بساحة الدوامنة، ربّما جاءت من خلال تجمّع باعة حليب الماعز من أهالي دوما في هذا المكان. لم يوخز مسامعي صوتٌ مثل ذاك الذي يطلقه بائع الحليب الدوماني، وهو يصيح: حليـــيــــــــِّب.

فموجة صوته كانت من نوع fm العابرة للمسافات النائية، في ساحة الدوامنه الأنيقة، النظيفة والمطلّة على ملجأ حربي تظلّله أشجار الأكاسيا . بيت دمشقي في الطابق الثاني، تميّز وتبارك بساكنيه، هنا بيت الرفاق يوسف نمر عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعيّ السوري، ومعه الرفيق حنين نمر وهو اليوم الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، كنت وقتها طالباً في قسم الفلسفة بجامعة دمشق، وكنت متأثّراً بالفلسفة المادّية وأفكار الاقتصاد الماركسي، وهذا شأن معظم دارسي الفلسفة. أذكر أنّ أحد عمّال الغزل والنسيج بدمشق هو الذي عرّفني على حنين نمر، وتوثّقت صلاتنا بسبب وجودنا في حيٍّ واحد، وبيوتنا قريبة من بعضها، فكان يزورني بين الفينة والأخرى، وأزوره في بيته، وقد قدّمني إلى أخيه

الرفيق يوسف نمر، تعلّقت كثيراً بأفراد هذه العائلة، وكنت أجد في وجه أمّهم وجه قدّيسة، محبّة، لطيفة طيّبة إلى أبعد الحدود. وبعد حين أصبحت رفيقاً لأفراد هذه العائلة المناضلة، وكم كانت مفاجأتي كبيرة حينما دعاني السيد حنين إلى اجتماع في بيته، وأثناء الحضور وجدت أن أستاذي لمادّة المنطق في قسم الفلسفة، الدكتور نايف بلّوز هو الآخر مدعواً إلى نفس الاجتماع، وهنا أصبحنا جميعاً طلاباً بحضور الرفيق دانيال نعمة عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري، وعضو الجبهة الوطنية التقدّمية. ومن الأمور الطريفة، ذات يوم، كان برفقتي الزميل والرفيق وليد المحاميد من درعا، وكنّا طلاباً في السنة الثالثة فلسفة، كان وليد المحاميد متطرّفاً بحماسه السياسي، وهو من عائلة لها وزراء وقادة في الدولة آنذاك.

بعد انتهاء اللقاء التوجيهي الرسمي مع الرفيق دانيال نعمة، استأذن وليد للحديث، وقال متوجّهاً بكلامه للرفيق دانيال نعمة: أرجو يا رفيق دانيال أن تُكلّف من يرفع ستائر المخمل السميكة عن نوافذ سيارتك الفاخرة، كي لا تحجب عنك رؤية من يجب أن تراهم في الواقع، لا كما تراهم من خلال ما يُقال لك عبر التقارير، إنّ للمرسيدس سحرٌ شيطانيّ، أرجو أن لا تطمئنّ لها كثيراً، ونحن بحاجةٍ لأن نراك تسير بيننا. ومعهم أولئك الذين نناضل من أجلهم لتأمينٍ حياةٍ أفضل، وعندما انتهى، واستمع الرفيق دانيال نعمة إلى آخر الكلامٍ. توجّه إلى الرفيق حنين، وقال: سيكون حديثنا في المرّة القادمة عن الطفولة اليسارية، التي لمسناها عند هذا الرفيق الشاب. تبسّم الحضور وتغضّن جبين الرفيق وليد المحاميد غضباً، ولم ينطق بكلمة، ولكن الرفيق حنين نجح في شدّ الرفيق وليد للبقاء في صفوف الحزب. كان هذا منذ حوالي النصف قرن من الآن، الأخوة الأعزاء يوسف وحنين نمر، لكم منّي التقدير والاحترام ما دمت حياً،

وأرجو أن يحقّق الحزب الشيوعي السوري بقيادتك أيّها الرفيق حنين نمر النجاح، ولسوريا الحبيبة التقدّم والازدهار.

زقاق القيمرية

(٤ - ٤) المريمية



البطريرك الياس الرابع معوض بطريرك العرب ١٩١٤-١٩٧٩

رائحة الخبز الطازج المنطلقة من فرن الشاويش، تستوقفك لشراء بعض الأرغفة (التي يَطلق عليها الدمشقيون تسمية مرقّدة) والتي كانت تُباع بالعدد لا بالوزن، ولو كنت أعرف أن رغيفنا سيصل

إلى ما هو عليه اليوم من حالة مزرية لكنت احتفظت ببعض الصور لرغيف الأمس، رغيفٌ لو لم تأكل معه شيئاً آخر لاكتفيت وشكرت اللّه على عظيم نعمته. فرن الشاويش يبتعد عن بيتي حوالي الخمسين متراً، وأمامه مباشرةً زقاقٌ ضيّق يؤدّي إلى الكنيسة المريمية، مقرّ بطريركية إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، والمريمية هي الكنيسة الثانية في الأهمية التاريخية، بعد كنيسة القيامة في القدس. تمّ إغلاق الكنيسة المريمية بعد دخول الجيوش الإسلامية دمشق، وكان ذلك سنة ٧٠٦ وبقيت مغلقة حتى قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، بإعادتها إلى أصحابها الأرثوذكس مقابل أخذه لكاتدرائية يوحنا المعمدان، والتي تمّ تحويلها لتصبح الجامع الأموي. قال الوليد: إنّنا نعوّض عليكم عن كنيسة يحيى، بكنيسة مريم. وأعيد ترميم وبناء المريمية في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، لكنّها أُحرقت في سنة ٩٥٠ م بأمرٍ من أحمد بن طولون. وفي سنة ١٠٠٩ أُحرقت للمرّة الثانية بأمر الخليفة الفاطميّ، الحاكم بأمر اللّه، وهذا يدلّ على أنّ الدواعش موجودون منذ زمنٍ بعيد، ووجودهم مرافقٌ للتاريخ الإسلامي بمختلف عصوره. وفي سنة ١٣٤٢ انتقل مركز الكرسي البطريركي الأنطاكي إلى الكنيسة المريمية بدمشق وأصبحت مقراً بطريركياً.

تاريخ دمشق المسيحية مرتبطٌ بتاريخ الكنيسة المريمية، ولست الآن بصدد استعراض تاريخ المسيحية في الشرق. لكنّني سوف أتوقّف فقط مع غبطة البطريرك الياس الرابع معوّض. لأنّي كنت أشعر بقربٍ منه من خلال مدير مكتبه الأشمندريت يوحنّا التلّي، قبل أن يصبح رئيساً لدير الشيروفيم في صيدنايا. كان زميلي في الدراسات العليا فلسفة، وكنّا نشترك بمقعدٍ واحد، ويومها لم يكن عددنا كطلاب دراساتٍ عليا فلسفة بجامعة دمشق، سوى ستة:

(الدكتور سليم بركات، مدير مكتب رفعت الأسد، والذي استلم لاحقاً رئاسة قسم الفلسفة بجامعة دمشق. والدكتور أحمد برقاوي، المدرّس في قسم الفلسفة. والدكتور أسامة العجيلي، والسيدة رفيف، أرملة طيار شهيد في حرب تشرين. والأرشمندريت يوحنا التلّي. وأنا أديب قوندراق).

في أحد الأيام من سنة ١٩٧٦، كنت في زيارةٍ للأب الأرشمندريت يوحنا التلّي في مكتبه بالمريمية. يومها عرض عليّ أن يقدّمني إلى غبطة البطريرك إلياس الرابع، لأحصل على بركته، ولكنّي طلبت تأجيل الموضوع إلى وقتٍ آخر.

من هو البطريرك إلياس الرابع معوّض؟ غبطة البطريرك إلياس الرابع من مواليد بلدة أرصون في لبنان سنة ١٩١٤، درس في مدرسة الآسية بدمشق، أوفد إلى البرازيل لرعاية الجالية العربية الأرثوذكسية في مدينة ريودي جانيرو، وبقي هناك إلى أن انتخبه المجمع الأنطاكي المقدّس مطراناً على أبرشية حلب سنة ١٩٥٠. ثمّ ارتقى سدّة البطريركية للروم الأرثوذكس في ٢٧ أيلول ١٩٧٠. وكان له دور بارز وفعّال في القضايا الوطنية والقومية، وبخاصة قضية فلسطين، وكان الزعيم المسيحيّ الوحيد الذي شارك في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في لاهور ١٩٧٤، وألقى خطاباً هاماً في المؤتمر، وتقديراً لجهوده في سبيل القضايا العربية، لقّبه المؤتمر الإسلامي: الزعيم المسيحيّ في الشرق الأوسط وبطريرك العرب. كان أديباً وشاعراً وخطيباً متفوّهاً، وكان يتقن إلى جانب العربية اللغات: اليونانية والفرنسية والانكليزية والبرتغالية، ويُلمّ باللغة التركية. وفي يوم ٢١ حزيران من سنة ١٩٧٩، ارتقى إلى الرفيق الأعلى تاركاً في الأرض آثاراً تمجّد خدماته.

ها نحن الآن في محطّتنا الأخيرة من زقاق القيمرية. لا شكّ تشعرون الآن مثلي بالجوع، وأدعوكم لتناول وجبة الغداء التي اعتدت أن أتناولها في أغلب الأحيان، وكوننا قريبين من ملحمة أبو شكري لبيع لحم خروف العواس، سأطلب منه أن يقتطع لنا الكمية التي تكفي، وأن يضعها عند جاره فرن الشاويش ليفرشها فوق أرغفة العجين، وبعد دقائق ليس أكثر تكون الوجبة الشهية جاهزةً. وفي غرفتي تلك التي ترونها نتناول الطعام مع لبن العيران، وهذه هي الوجبة المفضّلة التي كنت أعتمدها عندما أتناول الطعام في البيت، اختصاراً للوقت الذي كان ثميناً بالنسبة لي. وبعد الانتهاء سوف أحدّثكم عن جارتي الفارسية الرائعة.

زقاق القيمرية، خطٌّ فاصلٌ بين القيمرية مسيحية، والقيمرية إسلامية، التي يسكنها أغلبيةٌ من شيعة دمشق، ولهذا كنتَ ترى الكثيرين من الإيرانيين الذين يأتون إلى دمشق، إما لأسباب الحجّ إلى مقام السيدة زينب، وضريح الحسين بن علي عليه السلام، ومقامه الشريف في داخل حرم الجامع الأمويّ. وإما لغاية التجارة، وكثير منهم كانوا يسكنون في حيّ القيمرية.

بيتي هو عبارة عن غرفة واسعة قديمة، وفق طراز العمارة الدمشقية القديمة. وهي جزءٌ من بيتٍ لأسرةٍ كريمة، عزيزة على نفسي من قرية كفرّام بمحافظة حمص، قوامها ثلاثة أبناء ذكور وكنت رابعهم، وثلاث بنات، كنت بمثابة الأخ الأكبر لهنّ، حبّهم ملأ عليَّ حياتي وحرّرني من مشاعر الاغتراب. الإبن الأكبر أكرم طالب في السنة الأولى بكلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق، طلبت منه أن يزورني في السقيلبية بعد الانتهاء من الامتحانات الجامعية، ووعد أنّه سوف يلبّي دعوتي، وانتظرت زيارته لكنّه لم يأت، فكتبت إليه معاتباً عدم وفائه لوعده، وجاءني الردّ: فتحت الرسالة القادمة

من طرف أهله، فتصوّروا الصدمة الفاجعة الصاعقة. الرسالة الجوابية كانت دعوة لي لحضور صلاة الأربعين على روح الفقيد الشاب أكرم مطانيوس سلّوم، يا للفجيعة المروّعة، أيّتها الآلهة السادية، لماذا؟

وفي الموعد المحدّد، كنت في كفرّام مع بعض الأصدقاء من السقيلبية، وضعت إكليلاً من الورد فوق ضريح الحبيب الراحل، وعلمت من أهله أنّه كان مع مجموعةٍ من زملائه أبناء كفرّام، غادروا دمشق إلى كفرام لتقديم واجب العزاء، بوفاة والد زميلٍ لهم، فانقلبت سيارة الميكرو وكان الضحية الوحيدة. واللّه لو بكيتك العمر كلّه لما أوفيتك ما يتوجّب. أحببتك كثيراً يا أكرم وفاجعتي بك صدمة زلزت كياني، عليك سلام اللّه يا أكرم وأحبّ خلق اللّه على قلبي..

في البيت المقابل لبيتي، أي في الضفّة الثانية من زقاق القيمرية. وأربعة أمتارٍ فقط هي التي كانت تفصل بيننا، غرفةٌ دمشقيةٌ يسكنها شابٌ وفتاتين، وهم أبناءٌ لأسرةٍ فارسية. يعمل الشاب بالتجارة ما بين دمشق وطهران. الفتاة الكبرى كانت تُدعى مليكاة، وهي شابة سمراء كلّما أطلّت من خلال نافذة بيتها تبدو ملامحها الجميلة، فيها من الرقّة والعذوبة والدلال ما يليق بعمرها، كانت ترمي إلى داخل غرفتي عبر النافذة علبة سجائر أجنبية من نوع ونستون، وتكرّرت الحالة وأصبحت عادة يومية، وذات يوم طرقت باب غرفتي أختها الصغيرة، وكانت في السابعة من عمرها، وتدعى كريماة وأعطتني لفافةً، وقالت بلغة عربيةٍ ركيكة، هذه من أختي مليكاة، رسالة مغلفة بمحرمة معطّرة، حروفها عربية وكلماتها عربية، ولكنّها لغة فارسية بحروف عربية، لم أفقه منها شيئاً، وذات مرّةٍ زارني صديقٌ لي، وكان ضابطاً في جهةٍ حكوميةٍ حسّاسة

وهامّة. وقال أنّ في مجاله كثيرون يتكلّمون اللغة الفارسية وتعهّد بإعادة الرسالة بعد ترجمتها. وتراني وقد انقضى حوالي النصف قرنٍ من الزمان، وأنا لا أزال أنتظر وصول الترجمة. سلام اللّه عليك يا شهرزاد، كم من الليالي انقضت وأنا أصغي لصوت غنائك العذب، كان صوت الغناء يذكّرني بالأغاني الهندية. من قال أنّ اللغة هي الوسيلة الوحيدة للتعبير، هناك حالاتٌ كثيرةٌ لا نحتاج معها إلى إتقان لغة الغير، وهذه الوسيلة هي اللغة التي تتقنها جميع شعوب الأرض، حتى أولئك الذين بهم صمم، هذه الوسيلة هي التي عبّر عنها أحمد شوقي:

وتعطلـــت لغـــة الكـــلام وخاطبـت عينـــاي بلغـــة الهـــوى عينـــاك

وأقبل الصباح وتوقفت شهرزاد عن الكلام المباح. كلانا يا هند غريب ها هنا، وكلّ غريبٍ للغريب قريب.

الوداع يا شهرزاد

بيتي في حي القيمرية بدمشق، كان بيتاً لجميع أهلي من أبناء السقيلبية، ولا أظنّ أنّ هناك أحداً من أهلنا في السقيلبية قصد دمشق لأيّ سببٍ كان، خلال الفترة ما بين ١٩٦٩ وحتى نهاية عام ١٩٧٧، إلا وزار بيتي وكان ضيفاً بل صاحب البيت، وآخر من زارني قبل رحيلي عن دمشق كان الدكتور العزيز على نفسي، عايد نصّار ويومها قصد دمشق للتسجيل في كلية الطب البشري، وها هو اليوم موضع فخرنا وبه نتشرّف ونعتز.

-١٢-

جريمة قتل في زقاق القيمرية

والضحية وردة السقيلباوية

(وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت)، لم تكن وردة السقيلباوية تدرك أنّ نهايتها ستكون في زقاق القيمرية بدمشق القديمة. وافقت دون تردّد أن تكون زوجةً لرجلٍ لا تعرف عنه إلا القليل. قالوا لها أنّه وحيد، وليس هناك من ينافسه على ثروة أهله الطائلة، التي ستكون ملكاً خالصاً لها، فتودّع الفقر المتربّص لها في كلّ زاوية، وفي كلّ موضعٍ ومكان. وتنجو من كابوس العنوسة المرعب الذي يسكن قلوب العذارى في مختلف أنحاء شرقنا العربي. العنوسة التي تحول دون تحقيق الآمال والأحلام التي تدغدغ مشاعر كلّ صبيةٍ في أن يأتيها فارس الأحلام فوق صهوة حصان، حصان لا يهمّ إن كان لونه أبيض أم أشقر أم أبلق، المهمّ أن ينقلها مما هي فيه إلى ما تعتقد أنّه الأمل والرجاء بالخلاص من كلّ المخاوف والكوابيس والأوهام. (وهي التي كانت تسمع والديها بين الحين والآخر يتنهّدان بحسرةٍ وألم شديد: همّ البنات حتّى الممات). في الزواج تحقّق الأنثى وجودها فتصبح سيدة بيتها (مملكتها) وعقيلةً لزوج، وأماً لأبناءٍ وبناتٍ يشكّلون الحصن الذي تحتمي داخله من غدرات الزمان، وكيد بنات الدهر.

لم تكن وردة السقيلباوية تدرك أنّ زوجها، كان نزيل مشفى ابن سينا للأمراض النفسية والعقلية، لمدّة خمس سنوات، بسبب معاناته من مرض التوحّد الذي تطوّر وأصبح انفصاماً في الشخصية.

وعندما استنفذ جميع فرص الأمل بالشفاء تمّ تخريجه لتتولّى ابنة عمّه سلوى الإشراف عليه، لأنّ جوزيف رومية هو آخر الذكور المتبقّين من آل رومية في دمشق، فلا أب له يرعاه، ولا أم تحنو عليه، ولا أخ يقف إلى جانبه، ولا أخت تداريه. وحيداً عاش في بيتٍ واسعٍ ولم يكن له أصدقاء يساعدونه على صروف الدهر ومتاعب الحياة.

سلوى روميه، يكفيها شؤون بيتها، وهموم أسرتها، ولهذا فكّرت في تأمين زوجة لابن عمّها لتعتني به، وانطلاقاً من قناعة سلوى أنّ الزوجة وحدها القادرة على تعقيل الرجل، وأنّ الرجل مهما كان شأنه ومهما بلغ من العمر، يبقى في داخله طفلٌ صغيرٌ يحتاج إلى امرأةٍ تعتني به.

ولما كان كلّ شيءٍ في الدنيا تسبيب إلا الجازة نصيب، فزواج وردة السقيلباوية من جوزيف رومية، قاد إليه النصيب.

سلوى رومية، ابنة عمّ صهر السقيلبية، كانت صفراء الشعر وهي ليست بالشقراء، وجهها منمّش بكثافة، وعيناها نافذتان ضيّقتان جداً في أعلى وجهٍ مستطيلٍ يتوسّطه أنفٌ لا يضاهيه أنفٌ آخر في الطول، ولا حتى أنف ابن حرب الذي هجاه ابن الرومي بقوله:

لك أنف يا ابن حرب	أنفت منه الأنوف
أنت في البيت تصلّي	وهو في الكعبة يطوف

وأنف سلوى كان يسبقها في كلّ مرّةٍ بالوصول إلى البيت الذي تزور، سلوى رومية هذه، إنّما هي هيكل عظمي دقيق يكسوه القليل من اللحم الجاف (القاورما) هنا، وقليلٌ هناك. تبدو سلوى لمن ينظرها وكأنّها مومياء حتشسبوت الخارجة من لحدها، وهي التي أخبرت ابن عمّها أنّ زوجته من ضيعتي، وأنّني أسكن قريباً من بيته.

في صبيحة يوم الجمعة، يوم العطلة، أتأخّر في النوم عادةً، سمعت طرقاً شديداً وملحّاً، وكأنّ الطارق صاحب حاجة، نهضت من فراشي: اللّهم اجعله خيراً، أزحت طرف ستارة النافذة قليلاً، يا إلهي هذا هو الرجل الذي أتجنّب ملاقاته في الشارع، لأنّ منظره يوحي بصورة ثورٍ هائج، متحفّز لمواجهة مصارعيه في حلبة مصارعة الثيران، وكما يقول وديع الصافي: "ونص شقّة بابنا شقيت". وجمدت لما شفت وجه الضيف، والحكي تخرسن على لساني. ما كان ضيفي خصم حامل سيف، ولا بيننا في تار إنساني، الطارق لبابي كان جوزيف رومية، زوج وردة السقيلباوية. صباح الخير، ردّيت: صباح الخير. أنت أديب؟ نعم. سلوى بنت عمّي فالتلي أنّك من ضيعة زوجتي، تفضّل زورنا. تكرم يا جوزيف، سوف أزوركم عندما أتزوّج، وأذهب حينها أنا وزوجتي لزيارتكم. عال راح أنتظرك. روح تزوّج ولا تتأخّر من شان تزورونا.

أبلغني رسالته المقتضبة على عجل وغادر، لأنّي لم أطلب منه الدخول، وأنا لم أفعل ذلك لأنّي أخشاه. وأنا أخشاه جداً لمعرفتي أنّه مصابٌ بمرض فصام الشخصية. وصاحب هذا المرض أمامه خيار من اثنين لا ثالث لهما. إما قاتل للغير، وإما مقتول أي منتحر. سترك يا ربّ.

نساء حارة القيمرية يتحدّثن بشغفٍ عن وردة السقيلباوية، سيّدة أنيقة، بيتها نظيف، وطبختها شهيّة، وتحسن مداراة زوجها، حتى أنّهنّ اعتقدن أنّها نجحت في تحقيق الشفاء لزوجها -شفاء موهوم- لم ينجح الطبّ في تحقيقه. ويبدو أنّ زوجها تعافى وبمساعدتها وعنايتها انتصر على مرضه - هذا هو الحديث الذي كانت تتداوله نسوة حيّ القيمرية أثناء تناولهنّ لقهوة الصباح عند إحداهنّ. وردة السقيلباوية تتأبّط ذراع زوجها، وتمضي به إلى مشوار القصاع

المسائي. ويعودان إلى البيت يحملان بعض علب الحلوى أو البوظة المشكّلة ليأكلانها معاً. لم تطل أيام شهر العسل طويلاً. حيث استيقظت فجأةً، شخصية جوزيف المريضة القابعة في أعماق جوزيف الآخر. وقبيل الظهر بقليل نزلت وردة السقيلباوية درج بيتها وانطلقت في زقاق القيمرية تصرخ مستغيثة، واتّجهت صوب فرن الشاويش، حيث تجمّع بعض الرجال لشراء الخبز. كانت في ظهرها سكّينٌ انغرست عميقاً في جسدها. وهناك ارتمت، والدم يفور متدفّقاً. لم يكن بمقدور أيّ من الرجال تقديم أي نوعٍ من المساعدة، وحضرت سيارةٌ صحيّة نقلت وردة المطعونة غدراً وظلماً وقهراً، وإلى جانبها زوجها يصرخ: أنا مالي علاقة، مو أنا اللي قتلتها، وما بعرف مينو اللي قتلها. ماتت وردة، وعادت لتدفن بجوار أبويها فوق إحدى روابي السقيلبية. أما جوزيف رومية. فأُدخل إلى السجن، وهناك مات، ولم يجد من يطالب بجثّته. فأحيلت إلى مشرحة كلية الطبّ بجامعة دمشق. وبهذه المأساة التراجيدية أُسدل الستار الأسود على آخر حدث شهدته في زقاق القيمرية.

-١٣-

حضـــرة النائب

اليوم عُلّقَ على خشـــبة
الذي عَلّقَ الأرض على المياه
إكليلٌ من شوك، وُضع على هامة ملك الملائكة
وابن العذراء طُعــن بحــربة.

المكان: المزة شيخ سـعد، والزمان: أحد أيام شهر نيسان سنة ١٩٧٠.

انتهت ساعات الدوام الرسميّ في معهد الصحافة بشارع بغداد في دمشق بعبارة كان يردّدها المدرّس الألماني السيد فرانس فابر:

Wir Studierten heute und morgen zu den Treffen Liebe Studenten beendet

وترجمتها : انتهى درسنا اليوم، إلى اللقاء غداً أعزّائي الطلاب.

وانطلقتُ برفقة زميلي محمد غازي جريدة، وعبرت بنا سيارة باص النقل الداخلي مسافةً طويلة، مروراً بطريق الربوة وانعطافاً بجانب مشفى المواساة، وصعوداً باتّجاه مشفى المزّة العسكري، وعندها ارتفع صوت معاون السائق، الجالس في المقعد الأخير لبيع التذاكر، منبّهاً الركاب للاستعداد للنزول عند موقف المزّة-شيخ سعد. بدا لي المكان وكأنّنا أصبحنا في قرية خارج دمشق، فمعظم بيوت حارة الشيخ سعد، من الطين والخشب، وليس في جدران دورها نوافذ تطلّ على الخارج. ولا شرفات لها أيضاً.

وقف زميلي أمام بابٍ بسيطٍ متواضعٍ جداً، وهو ستارة أكثر منه باب، وليس بعيداً منه رأيت ضريحاً مسيّجاً، ومن دون قبّة فوقة، وإلى جانب الضريح، موقدة حجرية تنطلق منها أدخنة البخّور تملأ المكان برائحتها العطرية (هذا هو ضريح ومقام الشيخ سعد)، يبدو أنّه كان فقيراً مثله مثل سكان هذا الحيّ. لكنّه تقيّ وورع بدليل أنّ عطر دخان البخّور يظلّ منتشراً في معظم الأوقات.

لم يطرق الباب، ولم أسمع منه العبارة التي كنت أسمعها عند زيارة بيوت أصدقائنا المسلمين: (خدوا طريق). ولم أحسّ به يتنحنح إشعاراً بوجود غرباء. الوضع هنا مختلف، والناس ها هنا مختلفون. هذه غرفتي وبامكانك أن تأخذ راحتك فيها، ولكن وقبل كلّ شيء، يجب أن أُعرّفك على أهلي، مقابل الغرفة الخاصة بالزميل غازي، يوجد بيتٌ كبيرٌ وواسع، له باب، لكن من دون نوافذ. الجميع، جميع من في البيت خرجوا مرحّبين: هذه أمي أم محمد غازي، وهي من منطقة مزيريب بريف درعا: أهلين يا ابني، حلّت علينا البركة، أهلا وسهلا شرّفتنا. الحوش يا ابني لا يليق بالمقام، لكن وجودكم يطرح علينا النعمة والبركة. كنت أتأمّلها وهي ترحّب بي، وقد حضرني وجه أمّي. وهذه أختي الكبيرة سميحة وزوجها ضابط في جيش التحرير الفلسطيني. قالت: أهلاً وسهلاً فيك يا أخي، وتلك أختي أمل، والصغيرة اسمها فتحية. إخوتي الذكور اثنان محمود والصغير يُدعى علي. أما أبي أبو محمد فلن تراه، لأنّه ينطلق مع بزوغ الفجر إلى عمله (عامل بلوك في إحدى ورش البناء): يا مّا حضّرولنا الأكل، وعدنا إلى غرفة غازي، فيها سرير مفروش بشكل أنيق. وفي الجهة المقابلة صوفا بسيطة، وهناك خزانة رفوفها معدنية، وفوق الرفوف انتظمت كتب وكراسات جميعها خاصّة بالصحافة. وفي مكانٍ آخر من الرفوف، لاحظت وجود كتبٍ تخصّ طلاب السنة الثالثة لقسم

الجغرافيا بجامعة دمشق. غازي إذاً طالب جامعيّ أيضاً. وفوق الرفّ العلويّ من الخزانة، آلة تسجيل كبيرة ومتطوّرة، وإلى جانبيها بافلات ينطلق منها صوت رخيم. عندما سألته عن نوعية آلة النسجيل، أجابني بأنّه عندما عاد من الجزائر التي أمضى فيها سنة كاملة كمعلّم صفّ. "ذلك بعد نزوحه وأهله من القنيطرة عام ١٩٦٧" عاد ومعه سيارة بيجو. لم يجد من اللائق وقوف هذه السيارة بجانب هذا البيت. فباع السيارة واشترى بما تبقّى من قيمتها -بعد سداد ديون مستحقّة-، اشترى آلة التسجيل هذه، وهي أعزّ عليه من السيارة. أدار مفتاح المسجّلة، فانطلقت منها موسيقى كنسية بيزنطية وصوت فيروز:

(اليوم عُلّق على خشبة، الذي علّق الأرض على المياه)

(أنا الأمّ الحزينة وما من يعزّيها، فليكن موت ابنك حياة لطالبيها. أم يسوع قد بكت وأبكت ناظريها، تعالوا إلى مريم، أمّه نعزّيها). ذُهلت لسماعي صوت السيدة فيروز وهي تُرثي ربّنا يسوع المسيح، وكانت المرّة الأولى في حياتي أسمع فيها هذه التقاريظ في بيت زميلٍ جولانيٍّ مُسلم.

عندما أعادت السيدة فيروز: أنا الأمّ الحزينة، وما من يعزّيها. حضرت إلى قربنا السيدة أمّ محمد، باسطةً يديها نحو السماء: وبعيونٍ فاض دمعها، وتدحرج بعضه فوق وجنتيها. راحت تنتحب وتمسح فيض عينيها بطرف منديلها الأبيض وهي تقول: السلام عليك يا مريم، السلام عليك يا مريم، يا من بك تشرّفت نساء العالمين، واستعانت بآية من القرآن الكريم: (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، نتشرّف بك يا ستّنا مريم). إذاً لم تكن مريم وحيدة بحزنها الشديد، فالسيدة أمّ محمد، بكت على مصاب مريم، وقدّمت لها صادق العزاء.

أما أنا فقد انتابتني حالة من التصوّف اللاهوتي الروحاني، حلّقت خلالها على جناح، حملني بعيداً إلى خارج أورشليم حيث الجلجلة، وهناك رأيت بعيني خيالي، أمّ يسوع، وإلى جانبيها كلّ من المجدلية ويونا، يشاركنها البكاء والنحيب على ابنها المصلوب: حبيبي، حبيبي يا ولداه خاطبني، كيف أراك عريان ولا أبكيك يا ولدي. أوجاعك حرقت أكبادي، آلامك خرقت فؤادي. لم أعد أبالي بوجود الحرس الروماني، فتقدّمت أكثر وسجدت عند قدمي يسوع، ورفعت عينيّ نحوه: نسجد لآلامك أيّها المسيح، أي ذنب حمَّلَ العدل بنيه؟ لم يذكر أحدٌ أنّك قتلت يوماً، وأنت الذي لم تسرق، ولم تزنِ، وكنت محبّاً للربّ الإله، وباراً بوالدتك. وكنت تعظ بين الناس: أحبّوا بعضكم بعضاً، لأنّكم بالمحبّة تسلكون طريق الربّ إلى ملكوت السموات، وكنت تقول: طوبى للرحماء فإنّهم يرحمون. طوبى لأنقياء القلوب لأنّهم يعاينون اللّه. وطوبى لصانعي السلام، فإنّهم أبناء اللّه يدعون. أمن أجل هذا صلبوك يا عريس البيعة؟

لاحظ زميلي غازي شدّة تأثّري بما سمعته، بدّل الكاسيت، فانطلق صوت ديميس روسوس، وهو مغنّي مصري المولد، يونانيّ الجنسية، من مواليد الاسكندرية ١٩٤٦، لأبوين الأم إيطالية، والأب يونانيّ. والأغنية كانت بعنوان: الدموع والمطر Rain And Tears فالنقلة كانت من حزن إلى محطة أخرى حزينة، رجوت الزميل العزيز كي يخرجنا من حالة الحزن فكان شارل أزنافور المغنّي الفرنسي من أصل أرمني وأغنيته: (مع غصن من حنين، الحنين للأصدقاء والأهل، والأوقات الطيبة التي لن تعود) وعلمتُ أنّ أرمينيا تعتز بشارل أزنافور، فأقامت له تمثالاً في أهمّ ميادين العاصمة ييرفان، وأنّ الرئيس الأرمني منحه الجنسية الأرمنية والمواطنية

الكاملة. غنّى أزنافور لأرمينيا: (من أجلك يا أرمينيا) وهو أشهر من غنّى للحبّ والحياة.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، استلقيت مسترخياً فوق الصوفا، متأمّلاً بمن هم حولي. كانوا فقراءً لكنّهم أغنياء جداً بما يحملون من قيمٍ إنسانيةٍ راقية. كم نحن بحاجةٍ إليها هذه الأيام.



أديب قوندراق ومحمد غازي جريدة أمام مدخل معهد الصحافة في شارع بغداد /١٩٧١/

في هذا البيت الفقير من حارة الشيخ سعد الفقيرة، عاش أهمّ صحفيّ عرفته سوريا، من خلال جريدة الثورة لسنواتٍ طوال. يحمل هموم مواطنيه، ويساعد بكلّ ما في نفسه من حبٍّ للفقراء على إيجاد الحلول المقنعة والمرضية لمشاكلهم وقضاياهم. ومن هذا البيت الفقير بأثاثه، الغنّي جداً بقيمه وأخلاقه، خرج النائب في البرلمان السوري محمد غازي جريدة، وتسلّم رئاسة مكتب دائم في البرلمان، هو مكتب الشكاوى والعرائض، وكان صديقاً مخلصاً لجميع أبناء

السقيلبية، ومحبّاً لمنطقة الغاب الخيّرة، وأهلها . وكان يتبنّى كلّ قضيّة تطرح في جلسات البرلمان لصالح الغاب. وفي هذا البيت تعلّمتُ من القيم النبيلة، والمُثل العليا، ما يفوق جميع ما اكتسبته خلال دراستي الجامعية للفلسفة وعلم النفس، تعلّمت كيف أكون إنساناً، وتعلّمت منهم احترام ومحبّة الآخرين.

ولما كانت الورود والأزهار الأكثر عبقاً وجمالاً، هي الأقصر عمراً، كذلك كان حال عمر الصديق الوفيّ محمد غازي جريدة، ابن الجولان الخصيب، ونجم مدينة القنيطرة الشهيدة. فترجّل باكراً وتوسّد ثرى الجولان، واحتضنته مدينة القنيطرة الجديدة، وضمّته إلى صدرها . وهناك استراح من عناء النضال الطويل الذي نذر نفسه وشبابه من أجله ومات شهيداً.

ذهب الذين أُحبّهم، وبقيت مثل السيف فردا



من اليسار أديب قوندراق، غازي جريدة، وعلي صيوان

-١٤-

عزفٌ منفرد على الناي، من مقام الأصفهان

"إنّها قصّة حبّي"

عندما تستمع إلى مقام الأصفهان، تشاهد بعين سمعك آخر فصلٍ من حكاية عاشق دنف، تقطّعت عُرى آماله، وتواصلت زفراته، ينوح بآخر ما في جسده من نبض الحياة، ويرثي بما تبقّى في حياته من رمق.

الأصفهان رثاء الذات بغصّات متقطّعة متواصلة، وتنهّدات عميقة، نغمة صداها سكينة تمازجها المرارة والأسى وحلاوة الدمع والوفاء. وإذا كان النهاوند حنين من يحيى ببعض الأمل، فالأصفهان أنين من تقطّعت عُرى آماله.

يسهر المصباح والأقداح والذكرى معي
وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي
يا الذكراك التي عاشت بها
روحي على الوهم سنينا
ذهبت من خاطري إلا
صدى يعتادني حينا فحينا

تأخّر صديقي العزيز يونس عن موعد زيارته المسائية المعتادة يومياً إلى بيتي في حيّ القيمرية بدمشق القديمة، لكنّه جاء. وبعد

السلام والتحية، قال: أحمل لك رسالةً شفهيةً من زميلة لنا في إذاعة دمشق، والرسالة هي من الآنسة وفاء رئيسة قسم اللغة الانكليزية في إذاعة دمشق، تدعوك لزيارتها في منزلها الكائن في حيّ القصور بجانب القنصلية الروسية، والموعد في الساعة الثامنة مساء يوم غدٍ الخميس من شهر آذار سنة ١٩٧١، وسأكون برفقتك، استمعت إليه باندهاشٍ، لأنّي لم أفهم عمَّا يتحدّث، ومن هذه الوفاء التي تطلب زيارتي، وأنا لا أعرفها، ومن أين تعرفني؟ وماذا تريد منّي؟. عندما نذهب إليها، سوف تعرف وتلقى الإجابة المناسبة على جميع تساؤلاتك. لكنّي لا أعرفها. ولكنّها هي تعرفك، رغم أنّها لم ترك في حياتها. سألتني عن بعض الأشخاص من عائلتك، كانوا يسكنون في دار أهلها في حيّ المدينة بحماة، في مطلع الستّينات من القرن العشرين. نعم الآن تذكّرت يوم كنت أقيم في حماة للدراسة، سكنت في حيّ المدينة، وكان لنا جيرانٌ في نفس الحيّ، يحملون اسم عائلتها وكانت هناك فتاةٌ صغيرةٌ في المرحلة الإعدادية، ولم أكن أعرف اسمها، لكنّي أطلقت عليها اسم Negro، وكم أحببت ذلك الإسم. تُرى هل الدعوة من وفاء ستكون بخصوص أختها الصغيرة التي أسميتها يوماً Negro؟ لا أظنّ ذلك!. وهل تنصحني يا أخي يونس بالذهاب إلى زيارتها؟ نعم وسوف تُسرّ بالتعرّف على هذه الشخصية الإعلامية الراقية جداً، وما الذي تريده منّي يا ترى، لا بدّ أنّ هناك أمراً هامّاً. ابتسم يونس وقال: أظنّ أنّ الأمر يتعلّق بزميلتنا الآنسة فيكتوريا، تأمّلت ملياً في وجه الصديق الحبيب يونس، وقلت: لكنّ الموضوع انتهى، واتّفقنا على ذلك، فهل تسعى الآنسة وفاء إلى مبادرة للعودة؟ لا، ولكن هناك أمراً آخر تريد أن تتعرّف عليه منك

شخصياً. على بركة الله إذاً يا أخي يونس، سوف نذهب إلى موعدنا معاً.

كم هو جميلٌ حيّ القصور يا يونس، أشعر وكأنّي في إحدى الأحياء الأوربية الراقية، وكم هو البون شاسع بين حيّ القيمرية بدمشق حيث نعيش، وحيّ القصور الدمشقيّ هذا.

ضغطة خفيفة على جرس المنزل، وبعد قليلٍ فُتح الباب، ورحبّت بنا صبيّة شقراء بابتسامةٍ لطيفة: أهلين يونس، أهلين أخ أديب، أظنّ أنّي لست مخطئة. بالتأكيد أنا أديب وأتشرّف بتلبية دعوتك. أظنّ أنّك الآنسة وفاء؟ نعم أنا هي بالذات، ومشت أمامنا إلى غرفة الاستقبال المفروشة بشكلٍ أنيقٍ، يعكس رقيّ وذوق الساكن لهذا البيت. وعاودت الترحيب وهي تتأمّلني بدقّة، أربكتني نظراتها الفاحصة، تُرى عمّ تبحث؟ وشعرت بشيءٍ من الانقباض والقلق. ولاحظتْ كيف تغيّرتُ وتجهّمتُ، فعملت على التخفيف من حدّة مشاعري. فراحت تسألني عن ابن عمٍّ لي، كان يسكن في حماه قريباً من منزل أهلها هناك. وراحت تكيل المديح والثناء لحسن معشر الأقرباء، وتصف جمالهم الخَلقيّ والخُلقيّ، وتحدّثت بكثيرٍ من الإعجاب عن أقرباءٍ لي سكنوا في منزل أهلها بحماة، فشعرت بشيءٍ من الراحة والطمأنينة. وراحت تقدّم أنواع الضيافات المختلفة: أنا متأكّدة بأنّكم سوف تظلّون تذكرون أيام الدراسة في معهد الصحافة، والأيام الحلوة التي عشتموها معاً على مدى سنتين. أجمل لحظات العمر، هي لحظات الشباب وما يرافقها من مشاعر وأحاسيس وعواطف. الآنسة وفاء تُمهّد للدخول في الموضوع الذي استدعتني من أجله. وتابعت: حدّثتني زميلتكم الآنسة فيكتوريا، والتي هي اليوم زميلتي، وقد أصبح يضمّنا مبنىً واحداً، هو مبنى الإذاعة والتلفزيون، ولا يفصل بيننا إلا بعض المكاتب، فأنا في قسم أخبار

الإذاعة، وهي تعمل في برامج الأطفال بالتلفزيون. وكثيراً ما ألتقي بها. كم هي لطيفة ومهذّبة، وكم حدّثتني عن حبّها واحترامها لزملاء الدراسة، أمّا أنت يا أديب فكنت أهمّ المواضيع التي كانت تتحدّث فيها. لا تستغرب إن قلت لك بأنّني أعرف عنك، ما لا تعرفه عن نفسك. طبعاً معرفتي بك من خلال الأحاديث التي كانت ترويها لي زميلتك الآنسة الراقية فيكتوريا.

أتذكُر كيف قدّمتَ لها رسالةً باليد، تقول فيها: آنستي العزيزة لك في نفسي مكانة سامية من التقدير والاحترام بل والإعجاب، وهذه المكانة إنّما هي أعلى من مكانة الزمالة، وأرقى مقاماً من علاقة الصداقة، إنّها حالة عاطفية يسمّونها ......، توقّفت الآنسة وفاء عن الحديث، ونظرت في وجهي وقد ازداد احمراراً، خجلاً وقالت: ما اسم هذه الحالة العاطفية؟ لماذا لم تُصرّح لها بما كانت تريد أن تسمعه علانيةً منك؟ حديث وفاء زاد في خجلي، وقلت في نفسي: يا إلهي! لماذا لا تحافظ النساء على الأسرار الخاصّة جداً؟! وتابعت وفاء تقول: وصلت رسالتك، وأجابتك فوراً بأنّ مكانتك في نفسها لا تقلّ عن مكانتها في نفسك، وذكرت لي أنّها قدّمتك إلى أهلها، وأنّها دعتك إلى بيت أهلها، لتكون قريباً من الجميع، وأنّها كانت تؤكّد على الجلوس إلى جانبك في مقصف نقابة الفنانين، في نفس مبنى معهد الصحافة، على مرأى من جميع الزملاء. وذكرت لي أنّها كانت تسعى لشدّك إلى الإيمان، وكانت تدعوك إلى مرافقتها إلى كنيسة السريان في باب توما، لتقدّمك إلى أقربائها وزميلاتها. وكانت تحرص على أن تكون معها في جميع الأنشطة الاجتماعية والثقافية لجمعية الشباب السريان. وكانت عضواً ناشطاً في الجمعية، هل ما ذكرته لك صحيح؟،

– نعم كلّ ما أتيتِ على ذكره حصل. وتابعت:

– في اللحظة التي كنتم فيها قد اقتربتم من الإعلان عن تحديد موعد للخطوبة اختلفتم، وافترقتم بعد أن تعاهدتم على الاستمرار بالوفاء، كلّ تجاه الآخر. لماذا اختلفتم؟

– لم نختلف وإنّما تباينا في الرأي، اتّفقنا على كلّ شيء، لكنّها طلبت أن أتعهّد لها بالبقاء في دمشق مدى الحياة. عهد لا أجد في نفسي الكفاءة على الالتزام به، فصوت أهلي وأقربائي وأصدقائي وديرتي، يصرخ بي كي أعود. وأنا أتوق للعودة في كلّ لحظة. بينما هي متجذّرة في دمشق، وأنتِ تعرفين يا آنسة وفاء من خلال إقامتك الطويلة في دمشق، أنّ الفتاة الدمشقية لو خُيّرت بين دمشق وجنّات عدن، لفضّلت دمشق على جنّة اللّه.

– أديب هل تفكر بالعودة؟،

– لا أبداً، اتّفقنا على أن نبتعد، ولكن أن نبقى أوفياء ومخلصين كلّ نحو الآخر مدى الحياة.

– هل لكَ ملاحظات سلبية في شخصية زميلتك؟

– لو لم يُعتَبَر كلامي كفراً لقلت أنّها قدّيسة، نقيّة، طاهرة، راقية، ومؤمنة. وأرجو اللّه أن يعوّضها بمن هو أفضل منّي.

– هل تمانع أن نعوّضها بمن هو قريبٌ منك أو مثلك؟

– ماذا تقصدين؟

– أريدها زوجة لأخي .

– أُهنّئكم من كلّ قلبي، سيتبارك الدار الذي تحلّ به، لسوف تفيض من جنباته الخيرات والبركات. وتغمره الألفة والمحبّة، تيمّناً بهذه التقية النقية الورعة.

– إذن لا مانع لديك؟

– بل أتمنّى لها ولمن سيكون شريكاً لحياتها، كلّ السعادة والهناء.

– من أجل هذا دعوتك يا أخي، وأنا شاكرة تلبيتك الدعوة، وسرّني أنّي تعرّفت على شابٍّ صادقٍ، مخلصٍ ووفيٍّ. وحيّاك اللّه يا ابن البلد. أريد لهذه الزيارة أن تتكرّر متى شئت، ودعائي لك بالصحّة والتوفيق والنجاح.

دامت زيارتنا حوالي ساعة ونصف، كنّا نسمع أصوات أحاديثٍ، تتسرّب إلينا من الغرفة المجاورة، لكنّنا لم نر أحداً غير وفاء، وبعد القهوة غادرنا مودّعين، شاكرين حسن الاستقبال والضيافة. أحسنت يا صديقي، كم كنت كبيراً في عيني، وكم كنت مخلصاً ووفياً لمن يستحقّ منك الوفاء. بهذه العبارة كسر صديقي الحبيب يونس، حالة الصمت التي انتابتني طوال طريق العودة إلى غرفتي، في حيّ القيمرية بدمشق القديمة.

وبعد عشرين سنة، بكلّ ما احتوته تلك السنوات من تغيّرات وتبدّلات، وبعد أن مضى كلّ منّا في طريق، وابتعدنا كثيراً، وفرّقتنا الأيام، وضباب النسيان يلفّنا ويحجب عن عين القلب كلّ ما كان. ومكان الجمر قد حلّ الرماد، ومحا السلوان ملامح صورنا، وصدى أحاديثنا وذكرياتنا، والكثير من الأماكن الدمشقية التي كنّا نزورها معاً.

اليوم نحن في الأسبوع الثاني من شهر نيسان سنة ١٩٩١، الجوّ صاف، والنسمات المنعشة تتسرّب إلى داخل مكتبي -في المركز الثقافيّ العربيّ في السقيلبية- مشبعةً بعبق الزهر المنتشر في كلّ مكانٍ من حدائق المركز. وزوج من طيور اليمام في حركة دؤوبة تمضي وتعود إلى حافّة نافذة مكتبي، حيث بنت لها عشّاً عائلياً أنيقاً، واختارت جيرتي، وقد أمنت لي. وتأكّدت من رعايتي ومحبّتي لصغارها. وحدها هذه الطيور الأليفة كانت تشدّني للتوقّف عن القراءة في موسوعة قصّة الحضارة لوول ديورانت، كنت مستغرقاً مع أحداث الجزء السادس من الموسوعة، وكان بعنوان: (قيصر والمسيح). رنّ جرس الهاتف:

- نعم. صوت نسائيّ في الطرف الآخر. يقول:
- مرحباً، إن سمحت أريد أن أتكلّم مع الأستاذ أديب.
- أهلاً بك سيّدتي، أديب يتكلّم معك.
- أديب، حضرتك أديب؟.
- نعم؟ من التي تتكلّم؟ ساد صمتٌ ثمّ قالت:
- أريدك أن تحزر، من التي تتحدّث معك؟
- يا إلهي ما أشبه هذا الصوت بنبرة صوتٍ كنت قد ألفته، واعتدت الإستماع إليه، كم يشبه صوتك يا سيّدتي صوت زميلةٍ كانت تدرس معي في معهد الصحافة منذ عشرين سنة، ولولا وجود المستحيل، لقلت بأنّ هذا الصوت يكاد يكون صوت ف. لكنّي أستغفر اللّه إلى أين ذهب بي الخيال؟ صمتتْ وطالت لحظات الصمت، ثمّ عاد الصوت متهدّجاً:

– أديب! هكذا كان عهدي بك، أصيلاً، ذكياً، أديب! ف تتحدّث إليك.

– كيف خطرنا على بالك؟ كيف حالك؟ وكيف هم عيالك؟ وكيف حال دمشق الحبيبة؟

– كلّ من تسأل عنهم بخير، ودمشق مشتاقة لزيارتك. وأنا أتحدّث إليك الآن من السقيلبية.

– أتمزحين؟

– لا إنّما أقول الحقّ. أنا الآن قريبة جداً منك. أتحدّث إليك من بيت السيد أبو صلاح، وعلمت أنّه ابن عمّتك، عدت وزوجي من زيارةٍ إلى قبرص لمدّة أسبوع، قضيناها في ضيافة الدكتور إلياس الضاهر، وطيلة فترة إقامتنا كنت حاضراً معنا، كنت أظنّ أنّ الدكتور الياس من حماة، وفوجئت أنّه من السقيلبية، وعندما سألته عنك، قال من أين تعرفينه؟ زميلي في دراسة الصحافة. حدّثنا بالتفصيل عن العمل الثقافيّ الكبير، الذي قمت به تجاه جدّه المعلّم الطبيب الياس ضاهر السقيلباوي، المهمّ أنا أدعوك الان للمجيء إلى هنا لتناول الغذاء معنا،

– من معك يا ف؟

– زوجي.

– وهل هو موجود قريباً منك وأنت تتحدّثين معي؟

– نعم وهو ينتظر أن أنتهي من الحديث معك، لأنّه يريد أن يسلّم عليك، ويتحدّث معك.

- مرحباً أستاذ أديب، ننتظر مجيئك، لنتحدّث عن قرب، وأرجو أن لا تتأخّر. وأعطى الهاتف للسيد أبو صلاح:

- ابن خالي العزيز ننتظرك، ولن نتناول الغداء حتى تحضر، ولا نقبل أيّ اعتذار.

ذهبت وسلّمت، وشكرتُ اللّه على وصولهم بالسلامة، وسألتهم عن قبرص، بلد ربّة الجمال أفروديت، وعن ابن عمّتي العزيز الدكتور الياس وعن عمله وعياله.

- هل نسيت دمشق يا أديب؟ سألتني فيكتوريا.

- دمشق في قلبي، وأنتم دائماً في البال. وصمتٌ وكنت أقول في صمتي:

يا من توهّم أنّي لست أذكره
واللّه يعلم أنّي لست أنساه
إن غاب عنّي فالروح مسكنه
من يسكن الروح كيف القلب ينساه

صدق الذي قال: (كلّ نار، تصبح رماد، إلا نار الشوق، كل يوم عن يوم تزيد)، لم تتمكّن السنوات العشرون، بكلّ أيّامها وأسابيعها وشهورها، وعواصفها ورياحها وحمأة شمسها. جميعها عجزت عن إخماد نارنا المقدّسة.

يسهر المصباح والأقداح والذكرى معي
وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي
يالذكراك التى عاشت بها روحي على الوهم سنينا
ذهبت من خاطري إلا صدىً يعتادني حيناً فحينا



قلي اش جابك علي ويش ذكرك بينا
عشرين عام انقضت وانت اللي ناسينا..
شيبنا شوف الشعر لونه شعمل بينا
ذكرتنا بالزغّر وايام منسيه منسيه..
قلي اش جابك علي بعد الجرا والصار
لامتني كل العرب صغارها وكبار..
ياما انتظرنا ومشى بنا العمر حدر
والقمر مل السهر ودع شواطيا..
بياع من يشتري حلمي ومواويلي
ينطيني قلبه الخلي وياخذ سهر ليلي..
مليت من حسرتي واللي هدم حيلي
بيعوني تالي قلب ماضل قلب ليّه ..



-١٥-

وداعاً يا دمشق



في الساعة العاشرة من صباح يوم السادس عشر من شهر أيلول، عام ١٩٧٦، حضر إلى مقرّ كنيسة الصليب في حيّ القصّاع بدمشق، الإشبينان عارف بطرس أبو كرشة، ورفيقة عارف نصار، وعددٌ محدودٌ جداً من الأصدقاء والزملاء، وحضر أيضاً حضرة الأبّ يوحنّا التلّي، مدير مكتب البطريرك إلياس الرابع، زميلي في الدراسات العليا بجامعة دمشق، ويعاونه اثنان من زملائه الكهنة، في كنيسة الصليب، وبدأت طقوس ومراسم الإكليل: تبارك الربّ إلهنا، الآن وكلّ أوان، وإلى دهر الداهرين آمين. وتمّت قراءة فصلٍ شريفٍ

من بشارة القدّيس يوحنّا الإنجيليّ البشير. وقد جاء فيه حضور السيّد المسيح لعرس قانا الجليل، وفي هذا العرس تمّت أولى معجزاته، حيث حوّل الماء إلى خمرة جيدة. ورفع الأب يوحنّا التلّي كأساً يحتوي على نبيذٍ مبارك، وقدّمه ليرتشف منه العروسان، ليكونا شاهدين على حقيقة آية يسوع. وبعد الانتهاء من الطقوس الكنسية تقبّل العريسان التهاني من الحضور، وانطلق موكبهما إلى بيت الصديق العزيز العقيد سمير ضاهر، في حيّ الشيخ محيي الدين، لقضاء استراحة قصيرة، يتمّ فيها تبديل الملابس الرسمية، والجلوس مع الضيوف الذين تمّ إكرامهم والاحتفاء بهم من قبل الصديق العزيز سمير الضاهر وزوجته المحترمة السيدة حنان البطرس.

اتّصل السيد غازي جريدة، يطلب حضورنا إلى شقّته في حيّ المزّة جبل، بناء الصحفيّين. وقد رتّب وجهّز لنا كلّ ما نحتاجه لإقامةٍ تدوم أسبوعاً.

في اليوم الثالث، قام الأخ الحبيب غازي جريدة، بالدعوة لحفلٍ ناعمٍ ولطيفٍ في منزله، وقد دعا إليه كلاً من: السيد ممدوح عدوان وزوجته، والسيد ممدوح الأطرش، وقد اعتذر عن حضور زوجته بسبب سفرها إلى السويداء، والعقيد سمير ضاهر وزوجته، والصديق نبيل بوز، وكلّ من سهى ومادلين عرنوق، وكان برفقتهم السيد سامر البوز وزوجته الإسبانية. وعلى أنغام موسيقى الكاسيت رقصت السيدة الإسبانية بشكلٍ أدهش وأتحف كلّ من رآها، وفرح الحضور وغنّوا جميعاً، ورقصوا وهنّؤوا العرسان مع الدعاء بالسعادة والرفاه. وهنا كان آخر عهدٍ لي بدمشق. عدت بعدها إلى بلدتي السقيلبية، بل إلى أحضان حبيبتي، وباشرت عملي الجديد كمدرّس للفلسفة وعلم الإجتماع، في ثانويات السقيلبية لمدّة ستّ سنوات،

وبعدها عشرين عاماً قضيتها في إدارة المركز الثقافي العربي في السقيلبية، واختتمت عملي الوظيفيّ في رئاسة معهد الفنون التشكيلية بحماة، حيث بلغت السنّ القانونيّ للتقاعد. وكان ذلك في ١٨ آذار سنة ٢٠١٠.

فإليك منّي يا دمشق:

بلادي وحبّك ياموجعي ... معي يابلادي يعيش معي

تراباتك المطلعات الربيع ... أكفٌّ من الذهب الممرعِ

وغيماتك البيض سكب العبير ... تُحدّ وتُنزل في الأضلع

ووثباتنا مالهنّ الدروب ... حلمن بوقع الخطا المزمعِ

بلادي وأيّ مهبٍّ رياحٍ ... بأحلامنا السمرِ لم يذرع

حكايتنا أنّنا في الوجود ... طموحٌ يطلّ على الأروع

بلادي وزهر دمشق يضوع ... بما في الذرا من شذا ضيّعِ

دمشق الجميلة عند رباً ... من الشرق طيبة المرتعِ

يحدّث عنك برفعة رأسٍ ... حديث البطولات لم تركعِ

إذا تذكرين يشيل جناحٌ ... ويوغل في الزمن المسرع

سألت لنا الله أيام رغدٍ ... كصحوّ مطلاتك الممتعِ

بلادي عليك سلام الشعوب ... ففي البال أنت وفي المسمعِ

محطات وأوراق ورسائل

- **لقاء مع إمام العصر،** ومعلّم المرشدية، الغائب الحاضر ساجـي المرشد، عليك سلام اللــه يا ساجي

(١ ـ ٣)

ملعونةٌ هي الحرب يا هالا، قتلت حبيبك، رفيق دربك، فارس أحلامك، معيل أسرتك. وجعلت من عقيلة البطل أرملة الشهيد، والأنجال أصبحوا يتامى، وتشرّد الأهل، وتفرّق الأحبّة، وتناثروا مثل رمال البحر فوق شواطئ بحار العالم، وموانئ الدول، ومطارات الأمم.

ملعونةٌ هذه الحرب يا هالا، دمّرت ديارنا، وحوّلتها إلى أثرٍ بعد عين، وتحوّلت منازل الوطن إلى خرائب وأطلال، تستدعي الوقوف فوقها، والبكاء عليها، وعلى الأحبّة الذين كانوا بالأمس ينعمون بفيئها وأمنها. واليوم أمست قبوراً لهم.

هناك على الضفّة الأخرى من البحر السوري -المتوسط- وقف من نجوا من رحلة العذاب، ينظرون بعيونٍ حجبت دموعها صورة الوطن، فانكفأ النظر، وتلفّت القلب، وناح المهاجر على فقدانه وطنه. نوح الحمائم المفجوعة بموت صغارها.

ملعونةٌ هي الحرب يا هالا، خمس سنواتٍ والموت يطاردنا في كلّ موضعٍ ومكان. ملعونةٌ راياتها السوداء، وملعونةٌ سيوفها الطائشة، تنشر الخراب والدمار في كلّ موضعٍ من ربوعنا، وفي أحياء وساحات مدننا ومصانعنا، وفي حقولنا ومزارعنا، وأزقّة قرانا، لم تنج المساجد، ولا الكنائس نجت من رجسهم وبطشهم وطيشهم. استهدفوا الحياة أينما وجدت، واغتالوا الفرح في قلوب الناس، وفي عيون الأطفال.

لكنّ ثقتنا المطلقة بالحقّ والعدل، وإيماننا بالخير، المتجسّدة جميعها بالله، تشدّ من أزرنا، وتجعلنا نثق بأنّ عدالة السماء قادمة، وأنّه بالكيل الذي كالوه لنا، سيكال لهم، سيثأر رجالنا، أبطالنا، حماة ديارنا، بعون الله ومؤازرة المخلصين من الأصدقاء، لسوف ينتقمون ويثأرون من كلّ نفسٍ شرّيرةٍ ألحقت بنا ضرراً.

أيامٌ قليلةٌ تفصلنا عن يومِ الفرح بالله، الذي يصادف في ٢٥ من شهر آب، حيث يحتفل أهلنا وإخوتنا المرشديّون بعيدهم الكبير عيد (الفرح بالله)، اليوم الذي أعلن فيه الروح المباركة، أمير الشباب، وزين الرجال، مجيب المرشد، ولادة الدعوة المرشديّة، وكان سنة ١٩٥١.

هذه المناسبة المباركة، تستدعي في نفسي ذكرى زيارةٍ قمت فيها برفقة الأستاذ المهندس فايز فوق العادة، رئيس الجمعية الكونية السورية، للمعلّم ساجي المرشد. زيارة تغمرني ذكراها بالغبطة، وتملؤني نشوةً روحيةً كلّما عاودتني هذه الذكرى.

في الساعة الثانية عشرة من ظهيرة يوم الجمعة، المصادف الأول من شهر نيسان لسنة ١٩٩٤، غادرت السقيلبية برفقة السيدين خليل جعفر، وحسن صافي خرفان. وكلاهما مُقَربٌ من المعلّم ساجي المرشد، كان الجوّ بارداً وعاصفاً، ودرجة الحرارة دون معدّلها. وصلنا محطّة الكرنك في مدينة حمص، حيث المهندس فايز فوق العادة كان بانتظارنا، وقد وصل لتوّه من دمشق. وبعد استراحةٍ قصيرةٍ في بيت السيد رستم بلقيس، انطلقنا جميعاً إلى منزل المعلّم ساجي المرشد، الكائن في حيّ الوعر. البيت أنيقٌ بمظهره الخارجيّ، وتلمس في كلّ جانبٍ منه، ملامح الهيبة والفخامة والوقار. وعند مدخله نقطة حراسةٍ مسلّحة، واثنين من الشباب يجيدان الترحيب بالزائرين. سار أحدهم أمامنا وفتح باب صالونٍ رحبٍ، يحتوي على أكثر من ركنٍ

للجلوس، وكلّ ركنٍ له ما يميّزه من فرشٍ وأثاث خاصّ به. وفي وسطه -الصالون- وقف رجلٌ متوسّط القامة، وقد بدت ملامحه وكأنّه تجاوز الستين بقليل، قامته معتدلة، ليس بالطويل، ولا هو بالقصير. مليء، ملامحه دقيقة، أنفٌ عربيّ، وعيون بنية صافية ذات لمعان وبريق أخّاذ، بريقٌ ينبئ بحدّة ذكاء صاحبه. كان يرتدي طقماً كحلياً مقلّماً بخطوط بيضاء دقيقة، ويضع حول عنقه لفحةً من نسيجٍ صوفيٍّ بنية، فاتحة اللون، ويلبس قبّعةً مخمليةً بنية أيضاً. وفي قدميه حذاءٌ من نوع البوط متوسط الارتفاع.

عرفته من خلال الصور التي كنّا نراها، تزيّن صدور بيوت الأصدقاء المرشديّين، التفتُّ إلى الأستاذ فايز، وهمست في أذنه، هذا هو ساجي المرشد، فسمع همسنا، وتوجّه نحونا مرحّباً ومصافحاً. سار أمامنا وجلس فوق كرسيّ مريح، بعد أن أشار لنا بالجلوس، جلست فوق الكرسيّ المقابل له، وكذلك اختار الأستاذ فايز مقعداً مجاوراً للمعلم. وساد صمتٌ مربكٌ ومهيب، فالمعلّم يتلقّى في كلّ يوم، عشرات الطلبات لمقابلته، من قبل أناس يختلفون في مستوياتهم وغاياتهم من طلب الزيارة. لذا تجد المعلّم ينتظر الزائر للبدء والمفاتحة بالحديث، صمتٌ يعطي مهابةً غير متقصّدة في الجلسة، ولكن الكثيرين من الزوّار، لا يفاتحونه، وينتظرون المبادرة منه.

لا بدّ من التنبيه منذ البداية، أنّ زيارتنا دامت أربع ساعاتٍ ونصف الساعة، وجرى خلالها حوارٌ ونقاشٌ متنوّع، غنيّ ومفيد، وعتبي أنّ الإخوان لم يوثّقوا مثل هذا اللقاء، الذي لن آتي على ذكر كلّ التفاصيل التي تمّت خلاله. وسوف أقتصر وأختصر وأذكر بعض الانطباعات، التي تكوّنت من خلال تلك الزيارة.

كسر الأستاذ فايز فوق العادة، لحظة الصمت، وقال: إنّ الصديق الأستاذ أديب قوندراق، رئيس المركز الثقافي العربي في السقيلبية، له

الفضل بحصول هذا اللقاء. وتابع والمعلّم يرقّ السمع: لقد حدّثني الصديق العزيز أديب، حدّثني عنكم طويلاً، حديثاً زرع في نفسي بذور محبّتكم واحترامكم قبل أن ألقاكم، وجعلني أشاركه إعجابه بقامتكم وشخصيتكم، وتاريخ أسرتكم النضاليّ ضدّ الإقطاع، ومن يحميهم في حكومة ادّعت أنّها وطنية، وعلمت منه رحلتكم مع الاضطهاد ومسيرةً العذاب من خلال النفي والسجن والإقامة الجبرية. كلّ هذا ساهم في تنمية الرغبة لتحقيق هذا اللقاء الذي كنّا نصبوا إليه، شكراً وقد خصّصتم لنا من وقتكم الثمين لقاءً نغتني به. ثمّ يقف الأستاذ فايز أمام المعلّم وقد أخرج من مغلّف ورقيّ أصفر، كتاباً وقدّمه إلى المعلّم قائلاً: أرجو أن تتفضّلوا بقبول هذا الكتاب، وهو آخر ما وضعت وعنوانه: (شرخ في مرآة الفكر البشري)، وأرجو أن يُتاح لكم الوقت للاطلاع على ما يحتويه، تقبّل المعلّم الهدية شاكراً.

(٢ ـ ٣)

وجاء دوري في الحديث: يا سيّد، أنا أديب قوندراق، من السقيلبية، وأعمل رئيساً للمركز الثقافي العربي في السقيلبية، منذ اثنتي عشرة سنة. وإنّي أُجِلُّ عملكم ومبادرتكم الكريمة بتقديم قصركم العامر في بلدة نبل الخطيب، هدية إلى وزارة الثقافة. ليكون مركزاً ثقافياً لجميع أبناء منطقة الغاب. لقد سمعت من الأصدقاء أحاديث كثيرةً، وجميعها يستدعي الفخر والاعتزاز بقامة سورية قلّ نظيرها، والأذن تعشق قبل العين أحيانا. ولكنّ العين تهيمُ حبّاً، تهلّل وجه المعلّم وانبسطت أساريره، فرحّب مبتسماً وتحدّث عن بعض معاناته، من زائرين يحلّون بثقالتهم أحياناً، وقلّة وعيهم، وسوء

نواياهم. وهكذا الناس يختلفون ويتفاوتون في القدر والمقام والوعي المعرفي.

تحدث في علم الفضاء والفلك، حديث العالم المتبحّر، علماً أنّ الأستاذ فايز فوق العادة، مصنّفاً كواحدٍ من أشهر علماء الفلك على الصعيد العالميّ، فكان يستمع إلى حديث المعلّم باندهاشٍ واحترام. وقد لفتني أنّه كان يصحّح للأستاذ فايز بعض المصطلحات التي كان يستخدمها باللغة الانكليزية، ومن الفلك إلى الروح، الروح التي انشغل الإنسان في معرفة أسرارها منذ وجدت الفلسفة، وولد معها السؤال حول كنه الروح وجوهرها، ومكان توضّعها في البدن. سؤال أُجيب عنه بأشكالٍ وفلسفاتٍ مختلفةٍ ومتباينة. حتى أنّ الإسلام أنهى كلّ حوارٍ بخصوص معرفة الروح: (يسألونك عن الروح، فقل علمها عند ربّي)، ورغم ذلك لا يزال الإنسان يسعى للوصول إلى معرفة سرّ الروح وجوهرها. وتحدّث المعلّم طويلاً عن الروح وعلاقتها بالمادّة، وعن قيمتها وطبيعتها ومواطنها، وأنّ الروح بحسب ما يراه إنّما هي مادة لكنّها ليست من طبيعة مادّة الجسد.

لم يقبل المعلّم عبارة: (الدين أفيون الشعوب)، وفق رؤية الأستاذ فايز، وراح يشرح الوصايا العشرة، وكيف كان من الممكن للعالم أن يكون، لو تفاعل وتعامل وفق الوصايا العشرة، لو حصل ذلك لكان الشرّ انتفى من الوجود، وساد الصلاح والسعادة بني البشر. وتابع يُحدّث عن الأنبياء وبما جاء به كلّ منهم من تعاليم سامية لخدمة الإنسان وسعادته في الأرض، وأثنى عليهم جميعاً وخصّ السيد المسيح بحديثٍ عذبٍ رقيق، وكأنّه عاشقٌ له. لكنّه انتقد بشدّة سلوك وممارسات رجال الدين المسيحيّ، الذين هم الأكثر بعداً عن قيم وتعاليم ومواعظ السيّد المسيح. داعماً أقواله بأمثلةٍ من الواقع الذي نعيشه مع هؤلاء الذين كان السيد المسيح قد نبّه إليهم وحذّر منهم،

وراح يذكّر بالآيات الواردة في الأناجيل بخصوص رجال الدين. وأثنى على رسول الله محمد بن عبد الله، ودوره ورسالته، وتوقّف عند الأحاديث النبوية مستنكراً أن يكون الرسول قد تحدّث بغير ما جاء في القرآن الكريم. أمّا الأحاديث النبوية فقد نسَبَتْ إلى الرسول قولاً لم يقله. أحاديث تخدم القائل بها، لأغراضٍ وأهداف ومصالح. وذكر حول الإمام عليّ بن أبي طالب كلاماً قدسياً متميّزاً وقال: السيد المسيح جاء بتعاليم نظرية تنطوي على الأمنيات، وعليّ بن أبي طالب طبّق ما قاله المسيح بشكلٍ عمليّ في الواقع المُعاش، واعتبر علياً قدوةً لمفهوم الديمقراطية الراقية. عليٌ جنَّد الجيش للحرب، لكنّه قبل أن يخوضها قال لجنده: لا يخوض الحرب من لا يريد، وهذا أمرٌ لا يحدث في أيّ بلدٍ في العالم يدّعي الرقيّ والديمقراطية.

المعلم ساجي المرشد، دفعني إلى قراءة القرآن الكريم مرّاتٍ ومرّات دون قصد. حدث ذلك عندما استشهدت بحديثٍ أمامه. أنّني قرأت آيةً تذكر بأنّ المسيح ديّان العالمين. آية لم أكن قرأتها في القرآن، وإنّما قرأتها في نشرةٍ صادرةٍ عن الكنيسة المرقسية المصرية، تنسب إلى الأنبا شنودة. قال المعلّم: لم أقرأ مثل هذه الآية في القرآن، لذا أرجو عندما تطّلع عليها، فقط أريد منك أن ترسل لي اسم السورة ورقم الآية، وأنا لك من الشاكرين. قرأت القرآن مرّةً أولى وثانية وثالثة، قراءة باحثٍ متمعّنٍ يفتّش عن أمرٍ يعنيه ولم أجده، واستعنت بالكمبيوتر ولكن لا فائدة، وكم كان خجلي من نفسي كبيراً عندما علمت مدى جهلي.

سألته أين لنا أن نصنّف المرشدية في قائمة الأديان؟ بمعنى آخر: مَن أنتم كمرشديّين؟ وما هي المرشدية؟، فقال:

- (المرشدية، إنّما هي دينٌ وليست هي بالحزب السياسي، إنّما هي منهجٌ أخلاقي، طاهر بقصد اكتساب رحمة اللّه ومواصلة عزّته، وهي ليست نظاماً اجتماعياً معيّناً ولا برنامجاً اقتصادياً، إنّما هي منهجٌ أخلاقيّ ومسلكٌ نفسانيّ ومنطلقٌ عقليّ متأتٍّ من وجدانية مقتبسة من منجاة اللّه، تعتني بطهارة السريرة وتبارك كلّ ما من شأنه تهيئة إكمال الفرد وإبراز جمال المجموع . والأصالة في المرشدية تتمثّل في خمسة أشياء:
- ضميرٌ طاهرٌ مستجلى من الإيمان باللّه والانسجام مع صفاته القدسية.
- فكرٌ وامضٌ من التماس مع الحقيقة.
- قلبٌ نابضٌ بالطموح إلى الكمال الروحيّ وإرادة الحياة.
- قدمٌ ثابت الصفّ مع قضايا الحقّ.
- يدٌ ممدودةٌ بالخير للناس أجمعين.

سألته:

- هل تؤمن بصلب المسيح؟
- نعم والصلب هو قمّة القدوة إلى الكمال. والحديث هنا كان طويلاً.

(٣ ـ ٣)

ومن كلام المعلّم ساجي نقتطف بعضها :

- لا تشنؤوا على أحد دينه، ولا تتهكّموا بدين أحد، ولا بطريقة تديّنه وإن لم تعجبكم، فما من دينٍ يخلو من صواب ونور من اللّه.

- زوجتك ليست أَمَتَك (عبدتك) ولا أنت مولاها، وليست سيّدتك ولا أنت خادمها، هي زوجتك وأمّ أولادك جسدياً، أختك دينياً، ورفيقة دربك مصيرياً، هي (زوجتك، أختك، رفيقتك) عاملها على هذا الأساس، لها عليك حقّ المودّة والاعتبار، وحسن المعاشرة إذا كانت وفيّةً لك، طيّبة العشرة معك.

- احترموا مشاعر الناس الدينية ولا تؤذوها.

- ترفّعوا عن المسبّة والشتائم حتى على مستحقّيها، عليكم بالدعاء وعلى الله القصاص.

- الدين ليستلهم الإنسان منه أفعال الحقّ والخير والصفاء، لا ليكون لبوساً أو ذرائع لخدمة مصالح دنيوية.

- الدين لإزكاء إرادة الحياة، وإقامة الإنسان الفاعل، لا لتعطيل الإرادة وتكبيل النفس بقيود الاتكالية المبررة تخاذلها بإسناد كلّ أحداث عالمها صغائرها وكبائرها إلى قوى سماوية متداخلة في عالم الإنسان.

- الإيمان والوعي مشكلة كلّ أصحاب دين، أنّهم لا يعون ما هم مؤمنون به، ولو وعوا لما تنازعوا ولما كَفّروا بعضهم بعضاً.

- الله ليس محصوراً بدين، وليس من دين اتّسع لكلّ المعرفة.

- روح كلّ ما في دين كلمتان: الله والإنسان. الله للأمل، والإنسان للعمل، فعلام يا أصحاب الأديان تختلفون؟

- الدين جاء ليوسّع النفوس، لا ليضيّقها. ليهذّب أطباعها ويلطّفها، ليروّضها بالعفّة والصفاء، ويقوّمها لا ليزيد من وحشيّتها ويثير نار شراستها. جاء لتتنسّم الأفكار رياح الحكمة الإلهية، وتقتبسها لا ليحجز الأفكار ويصادرها. ويلغي مفعولها. جاء ليعطيك قضيباً أخضر ليّناً ترعى به نفسك بالعدل والاستقامة، لا سيفاً فتّاكاً تتسلّط به على غيرك جوراً وظلماً وطغياناً.

- كل تعصّبٍ لغير الحقّ خطيئة.
- دع قوة رأيك تفرض نفسها، لا قوّة يدك.
- بئس أمّة تُحصى بعدد أفرادها، وليس بعدد أعمالها. وبئس الإنسان الفرد الذي تُحصى حياته بعدد أيامه، وليس بعدد أعماله.
- كن فريقاً مع الحقّ، ولا تقف متعاطفاً معه فقط.
- مكرمة الناس الأعمال.

أربع ساعاتٍ ونصف الساعة، عبرت وكأنّها دقائق في حياتنا، يُكثر من التدخين، ما أن ينتهي من تدخين بايباته الخمس (الغلايين) حتى يستعين بسجائر الكينت وأظنّه يفوز، وقد يتفوّق على ونستون تشرشل بتعاطي التدخين.

هل يُعقل أن تكون في حضرة ساجي المرشد، وتُقدّم لك صينيةً من الحلويات الفاخرة، وتتعفّف عن تناول بعضها. نظرت إلى خليل جعفر عساه يباشر مشجّعاً، لكنّه لم يفعل، ولا الآخرون فعلوا. لم أستطع مقاومة منظرها ورائحتها فتذوّقتها. كم هي لذيذة وشهية، وتمنّيت تناول المزيد لكنّ موقف الآخرين وتحفّظهم دونما مبرر منعني من المضيّ بتناول الحلويات من المائدة، نعم (المائدة).

وعندما وصلنا إلى نهاية اللقاء قلت للمعلّم: في نفسي عطشٌ وظمأ، شربنا من منهلكم الثرّ الكريم، ولم نبلغ حدّ الارتواء، ونتأمّل أن نحظى بلقاءٍ آخر. وكم أنا فخورٌ بهذا اللقاء الذي ستبقى ذكراه خالدةٌ في نفسي. هل تأذنوا لي بالكتابة عن الدعوة؟ قال:

- عندما تكون من المرشدين، سيكون لك ذلك.
- ماذا أحمل منك إلى أهلي في السقيلبية؟

– السلام والمحبة. وعندما مددت يدي لأصافحه مودّعاً، اقترب منّي كثيراً، ولفّ عنقي بيمينه، وهمس في أذني مازحاً، والمعروف عنه أنّه قلّما يمزح:

– صحيح أنتم في السقيلبية عم تقولوا أنّنا أصبحنا مسيحيين؟

– لسنا من يقول ذلك، وإنّما ما نراه من شبابكم أثناء زياراتهم المتكرّرة للسقيلبية، كنّا نراهم يزيّنون أعناقهم وصدورهم بسلاسل ذهبية، عُلّقت بها أيقونات المسيح وأمّه العذراء مريم. فقال مبتسماً مازحاً:

– الأجدر أن تتحوّلوا أنتم وتصبحون من المرشدين. ولن أنسى ابتسامته المشرقة أثناء وداعنا له. تلك الابتسامة الممزوجة بالمحبّة والرضى، أبهجت نفوسنا وأنارت درب عودتنا.

وبمناسبة عيد الفرح بالله، أتوجّه إلى جميع الأهل والأصدقاء المؤمنين بالدعوة المرشدية، بخالص التهاني، راجياً أن تعاودنا هذه الذكرى والحبيبة سوريا استعادت عافيتها وأمنها.

وللصديق العزيز الوفيّ ساقب جعفر، أقول: هنّأك الله على الإيمان. ولن أنسى ما تفضّلت به إذ أهديتني كتاب (شعاع قبل الفجر)، مذكّرات أحمد نهاد السيّاف، الذي قدّم له وحقّقه الصديق العزيز محمد جمال باروت، ولسوف أظلّ أقدّر ثقتك المطلقة بمحبّتي واحترامي لجميع الأهل، وكيف تابعنا معاً قراءة مخطوط السيد نور المضيئ (لمحات حول المرشدية، ذكريات وشهادات ووثائق) قبل الطباعة، وفرحتي كانت كبيرة وقد طُبع الكتاب ووصلتني نسخةً منه

هدية منك. شكراً لك أيّها الصديق الوفيّ. وشكري أسجّله لكلّ من السيد خليل جعفر، وطيّب الله ثرى الفقيد حسن صافي خرفان، أبو بحر، وقد أتاحا لنا اللقاء الغنيّ مع المعلّم ساجي المرشد. والشكر للأخ رستم بلقيس، الذي غمرنا بمحبّته ولطفه وكرمه واستقباله الحافل لنا في منزله، ولم أسمع عنه شيئاً منذ عشرين سنةٍ، أرجو أن يكون وجميع أفراد عائلته بخير وصحة وعافية.

- جميلة علي صقر غنيجة، خطيبة النفس الزكية مجيب المرشد

أوديسيوس وبنيلوبي، "مجيب وجميلة"، الوفـــاء...

صبيحة يوم الإثنين المصادف /١١/ نيسان سنة ١٩٩٤، زارتني في المركز الثقافي بالسقيلبية، الآنسة جميلة بنت علي صقر غنيجة، وعلمت منها أنّها كانت خطيبة النفس الزكية، أمير الشباب، وزين الرجال، مجيب المرشد، واضع الدعوة المرشدية.

الآنسة جميلة (أم علي) كما يلقّبونها، كانت في الستّين من العمر –تقريباً– حسنة الملامح، حلوة اللسان، عذبة الحديث، أخت الرجال، وتتّصف بالكياسة واللباقة، حاضرة البديهة، وسريعة الفهم والاستيعاب.

علمت بزيارتي للمعلّم ساجي المرشد، من خلال وجودها عند أصدقاءٍ لعائلتها في السقيلبية، فقصدتني، وطلبت أن أحدّثها عن ذلك اللقاء. وقالت أنّها تصغي لتسمع كلّ كلمةٍ قالها المعلّم، أرجوك لا تملّ منّي ومن طلبي، روحي تتوق إلى سماع كلماته. حدّثتها بالأمور المهمّة، فشكرتني ودعتني إلى زيارتها في بلدتها التابعة للحفّة، وأظنّ أنّ قريتها تُدعى نبع الخندق، إن لم تخُنّي الذاكرة، وتشرّفت بزيارة خطيبة المجيب. وفي صدر صالون منزلها الأنيق، يتمتّع النظر بملامح صورةٍ لوجه مشرقٍ كنور الشمس، إنّها صورة المجيب، الأمير الجميل، الذي اغتالتهٍ يدٌ آثمة. تمّ اغتياله حسداً وغيرةً، بأمرٍ من أديب الشيشكلي، الذي عزّ عليه أثناء جولته في محافظة اللاذقية لإشهار حزبه. يومها صُدم وهو يرى منظر الحشود الضخمة التي وقفت تنتظر وصول المجيب، وأيّ خطرٍ يمكن أن يشكّله هذا الشاب

النقيّ التقيّ الطاهر العلم ضدّ هيبة الدولة، ولم يعلم الشيشكلي أنّ هذا الشاب التقيّ، قد نذر نفسه لحبّ اللّه، ولم يكن يفكّر لحظةً بالسياسة وأهلها.

مجيب المرشد تنبّأ بموته وغيابه، قبل ثلاثة أيامٍ من موعد الاغتيال، وكان ينتظر هذه اللحظة بفرحٍ ومن دون وجل.

وبعد غيابه، بدأت مسيرة العذاب والاضطهاد بحقّ عائلة المرشد وأتباعه، ولم تسلم هذه الصبية الصغيرة والتي لم تكن بلغت الخامسة عشرة، فكانت تُستدعى للتحقيق والاستجواب، وتكرّرت الحالة مرّاتٍ عديدةٍ، وفي كلّ مرّةٍ كانت تخضع لضغوطٍ لتتنكّر لمجيب، ولكن هذا لم يحصل وبقيت الحبيبة المخلصة الوفية، لمن تسمّيه روح المسيح. بكت ويحقّ لمن كان مثلها أن تبكي زين الشباب، وعلمتُ أنّها لم تتزوّج من بعده، ولا تزال تنتظر منذ أكثر من نصف قرنٍ، وكلّها أملٌ أنّ روحها سوف تلتقي مع روح الحبيب.

نظرتُ إليها وقلت: ما أشبه جميلة ببينيلوبي زوجة أوديسيوس. سألتني:

– من هذه البينيلوبي؟، قلت:

– سيدة إغريقية ذكرها هوميروس في ملحمته الشهيرة الإلياذة، التحق زوجها أوديسيوس بالحرب الطروادية، وغاب عشر سنوات، والجميع ظنّ أنّه قد هلك في القتال، وتقدّم لها الكثير من الأمراء والقادة كخاطبين. وكانت تتمهّل الخاطبين بحجّة إتمام نسيجها الذي لم يتمّ، لأنّها كانت تُحلّ في الليل ما تحيكه في النهار. وبعد طول انتظار، عاد أوديسيوس للحياة مع بنيلوبي. مثال الوفاء الزوجي، لكنّ جميلة غنيجة تنتظر منذ أكثر من خمسين سنة، وهي على أمل اللقاء مع الروح المباركة والنفس الزكية مجيب المرشد.

- يوم بكت عين الوليد



علمتُ بمرضه، وكان فارسَ الكلمات الطيبة، بلبل المنابر وسمير المجالس الأدبية، شاعر حماة، أديبها ولسان حالها ومخزون ذكرياتها، الأستاذ وليد قنباز أبو بشار رفيق درب الدكتور وجيه البارودي، عكّازة شيخوخته، وجابر عثراته. وهو الذي لا يمكنك أن ترى ظهوراً تلفزيزنياً للدكتور وجيه، إلا إذا كان الوليد إلى جانبه. فهو الحافظ لجميع أشعاره عن ظهر قلب. وفي كلّ مرّةٍ، كانت تتعثّر ذاكرة البارودي، كان الوليد يردّد ويملي عليه ما سقط من ذاكرةٍ بلغت التسعين من عمرها.

سألته مستفسراً مطمئناً عن حالته الصحية؟ فقال:

أنا في أسوأ حالٍ يا أخي أديب، أقعدني المرض، وتراني اليوم أستعين بالكرسي المتحرّك، كم تتوق نفسي إلى زيارتكم، وأكون قريباً من أهلي الطيبين في السقيلبية، أهلي الذين بادلتهم الحبّ والاحترام، وكان للأماسي معهم طعمها الخاص، وللثقافة قيمتها ودلالاتها.

أناشدك بالله يا أخي أبو فراس، أن تطلب من أهلي الذين أحببتهم في السقيلبية، كي يذكروني في صلواتهم داخل كنائسهم، واطلب إليهم باسمي، كي يبتهلوا لروح الله وكلمته، سيّدنا عيسى بن مريم، الذي شفى الأعمى والأبرص والأكمة وأقام الموتى، كي يشفع لي عند ربّه ويشفيني مما أنا فيه، وتهدّج صوته... وبكى... ثمّ انتحب. وفقدتُ القدرة على الردّ والكلام، واعتقلَ الحزنُ كلماتي، فنطقت عيناي حين صمت لساني، ولم أعد أسمع صوته. وكان آخر عهدي بسماع صوت الوليد.

واليوم تراني أسمع صوته في نشيد الأنشاد، على إيقاع مزامير داوود، وأراه بعين إيماني ذلك البلبل المغرّد على أغصان أشجار الجنّة.

- لقاء مع فضيلة الشيخ أحمد بدر حسون مفتي الجمهورية العربية السورية..

قراءة جديدة في الخطاب الإلهي



مساء يوم الأربعاء المصادف /١٩/ آذار سنة ٢٠٠٣، شرَّف مدينتنا بزيارته فضيلة الشيخ أحمد بدر حسّون، مفتي الجمهورية العربية السورية، وكان أثناء زيارته لمدينة السقيلبية مفتياً لمدينة حلب، استُقبل بحفاوةٍ ومحبّةٍ وتقديرٍ من قبل أهالي مدينة السقيلبية، ومن جاء من القرى والبلدات المجاورة، كما حضر الدكتور المهندس سعيد عقيل ابن مدينة حلب، ومحافظ حماة آنذاك.

استهل حديثه قائلاً: مررت في السقيلبية، وأنا أول الشباب، بحثت عن الإسم وسرِّه، بحثت عن السكّان، فإذا هي من الجذور العميقة في تاريخ بلدي، إذ هي من المسيحية الملتزمة في العمق، والتي استقبل أبناؤها يوماً الإسلام في رياضها، فقالوا: نحن أبناء دينٍ سماويّ، وأنت دينٌ سماويّ. نتعانق ونتناغم ولا يلغي بعضنا بعضاً، فعاشوا في ألفةٍ ومحبّة، عيسى يعانق أحمد، ومريم تعانق آمنة. هكذا وجدت السقيلبية التي تحيط بها قرى وبلدات تتناغم فيها لغة الروح، لغة الكلمة ولغة الخير.

العجيب أنّنا تمسّكنا بالتفسير، بل قدّسناه في بعض الأحيان، وفهمناه على أنّه كلام الله المقدّس، مع أنّ الذين فسّروا، ما كانوا مقدّسين، ولا قالوا أنّنا مقدّسون. أبدعوا لزمانهم، وهم الذين هيّؤوا لنا الجذور للاستمرار.

قراءة النصّ يحتاج إلى تفسيرٍ يُعطي الهدف الذي من أجله نزل النصّ، وهو سعادة الإنسان، وليس تخويف الإنسان من الله، إنّما جعل الله محبوباً لنا، وليس أن نجعل الله مسيحياً أو مسلماً أو حنفياً، بل أن نجعل النصّ طريقاً لإسعاد الناس.

واختتم: لأهل هذه البلدة دُعائي وصلواتي، أن يجعل الله هذه البلدة (السقيلبية)، ومن حولها آمنين مطمئنّين، إنّه سميعٌ مجيب.

وقفت أمامه مخاطباً: سمعنا بذهبي الفم، وقرأنا عنه العديد من المواعظ. فملأ الإيمان قلوبنا، وازدادت محبّتنا لإخوتنا في الإنسانية. وكم أنا سعيدٌ اليوم أن أرى ذهبيّ الفم فضيلة الأخ الشيخ أحمد بدر الدين حسّون، يتحدّث فينا مبشّراً بالحبّ والخير والإخاء، ما أحوجنا إلى ثقافتكم، ونقاء إيمانكم، وصدق محبّتكم لمواطنيكم. وقدّمت له نسخةً من كتابي: (المسيح في القرآن ووحدة الهدف)، وكنت قد ثبّتُ

رقم هاتف منزلي على الصفحة الأخيرة من الكتاب، فقبل الكتاب وقبّلَهُ شاكراً.

وفي اليوم التالي اتّصل سماحته:

أخي أديب، أقسم لك باللّه أنّني لم أستسلم إلى النوم، إلا بعد أن انتهيت من قراءة كتابك الرائع. وحان موعد صلاة الفجر فقمت مصلّياً، وشكرت اللّه أنّني وجدت فيك الإنسان الذي يشاركني الرأي، ووجدت نفسي ثانيةً بأخٍ مسيحيٍ محبٍ للّه ورسله وأنبيائه. شكراً لك يا أخي كلماتك أثلجت صدري.

وبعد حوالي الشهر من الزمن، وبمناسبة عيد الفصح المجيد. اتّصل مدير مكتب فضيلة الشيخ المفتي حسّون قائلاً: فصحٌ مجيد وكلّ عام وأنتم بخير، فضيلة الشيخ حسّون يريد التحدّث معكم.

أخي أستاذ أديب قوندراق، فصحٌ مجيد، وكلّ عامٍ وأنتم جميعاً بخير، نشارككم فرحة القيامة، ونهنّئ جميع أهلنا المسيحيّين بالفصح والقيامة. أخي أديب، قرأت كتابك للمرّة الثانية، فأعجبني وسرّني ما جاء فيه، وأتمنّى أن تعمّم ثقافة هذا الكتاب على جميع شبابنا وشابّاتنا في سوريا، (مسيحيّين ومسلمين)، وأرجو منك عندما تجد الوقت المناسب لزيارتي في حلب، أن تعلمني مسبقاً ليتمّ حجز موعد للقاء السيد وزير التربية، ونعرض عليه كتابكم مع اقتراحي بأن يكون هو كتاب التربية الدينية للطلاب المسيحيّين والمسلمين، للمرحلتين الإعدادية والثانوية، فهو الكتاب الذي كنت أتطلّع إليه والآن وجدته.

شكرته وقد غمرني بمحبّته واهتمامه، ووعدته خيراً، وانقضت الأيام ولم أتّصل مع فضيلته، حضرتني مأساة وفاجعة فرج فودة، وكلّ ذنبه أنّه أظهر للمؤمنين بعض الحقائق الغائبة، وقلت في نفسي: ليس الآخرون مثلك يا أخي، فضيلة الشيخ حسّون، فالمتشدّدون السلفيّون كُثُرٌ في بلادنا، وهم يزدادون انتشاراً وتعنّتاً، ولن يقبلوا

بوجود من يُبدّل في ثقافتهم الدينية، أو من يسعى لخفيف تعنّتهم، وطويت الموضوع خشية العاقبة.

دمعة علـــى قبر صديق رحـــل

أمس فقط علمت، فصدمني الخبر، وعجز اللسان، فنطقت العين بدمعة نثرتها فوق قبرٍ احتضن جثمان صديقٍ تقيّ، نقيّ، مؤمن، طاهر القلب واليد واللسان، صديق أطاع الله ورسوله، وأحبّ جميع الأنبياء وأتباعهم، كان يدين بدين الله الحقّ، مصدّقاً لجميع ما جاء في الإنجيل والقرآن، دستوره كتاب الله، ودليله إلى الاستقامة في السلوك سنّة رسول الله.

يبكي لوجع طفل، ويهرع لمســـاعدة الفقير واحتضان اليتيم، فســـلام الله عليك ورحمةٌ منه على روحك الطاهرة، أيّها الصديق الحبيب، منير حديد (أبو عبادة)، فارقد بسلام إلى جوار من تُحبّ من أهلك في مدينة حماة، ولن أنسى فضلك وقد علّمتني القرآن الكريم تلاوةً وتفسيراً، وأهديتني الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة، ومقارنتها مع أحاديث السيد المسيح وتعاليمه.

نبتهل إلى الباري تعالى كي يجعل مقامك بين الأولياء والصالحين، وليكن ذكرك مؤبداً.

أديب قوندراق

نيسان/ ٢٠١٤

- رسالة من الأستاذ عبدالله يوركي حلاق، رئيس تحرير مجلة الضاد

الأديب الكبير الأعزّ، الأستاذ أديب قوندراق المحترم

تحية عربية طيبة

أرجو المعذرة لتأخّري بالكتابة إليكم، والشكر لكم لما أحطتمونا به من حفاوةٍ بالغةٍ تركت في نفوسنا أطيب الأثر وأوفر الإعجاب، بما طبعتم عليه من كرمٍ وشممٍ وأدبٍ رفيع. وكانت كلماتكم في تقديمنا رائعةً حقاً، وقد أعطيتمونا فيها أكثر ما نستحقّ بكثير، ولا ريب أنّكم نظرتم إلينا، بعين المحبّة والإخاء الصادق. وقد افتقدنا تلك الكلمة الرقيقة، ونحن نكتب نبأً عن تلك الأمسية الشعرية، التي كان لكم الفضل في دعوتنا لإحيائها في مدينة السقيلبية الجميلة.

نأمل أن نحظى بكلمتكم اللطيفة، لننشرها في عددنا الجديد، الذي سيصدر قريباً إنشاء اللّه ، كما نأمل لأن تهدوا تحياتنا العطرة إلى جميع الأصدقاء، وفي طليعتهم حضرة الأكسرخوس حنانيا عبدوش وأنجاله الكرام والمولى يحفظكم.

عبدالله يوركي حلاق

حلب في ٢٠/ ٥/ ١٩٩١

الضاد

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون والاجتماعيات
صاحبها ورئيس تحريرها
عبد الله يوركي حلاق
حلب - سورية

ص . ب ١٠٧ / ٦٤٤٤
تلكس : ٣٣١٢٢٤ شوفكامي

☎ ٢١١٢٨٦ / ٢٢٩٦٥٨ / ٢١٧٧٨١

حلب في ٢٠/٥/١٩٩١

الأديب الكبير الأعز الأستاذ أديب قرنفل المحترم

تحية عربية طيبة

أرجو المعذرة لتأخري بالكتابة إليكم وشكري لكم لما أحطتمونا به من حفاوة بالغة تركت في نفوسنا أطيب الأثر وأوفر الإعجاب بما طبعتم عليه من كرم وشمم وأدب رفيع.

وكانت كلمتكم في تقديمنا رائعة حقاً وقد أعطيتمونا فيها أكثر مما نستحق بكثير. ولا ريب أنكم نظرتم إلينا بعين المحبة والإخاء الصادق. وقد افتقدنا تلك الأمسية الرفيعة ونحن نكتب نبأ عن تلك الأمسية الشعرية التي كان لكم الفضل في دعوتنا لإحيائها في مدينة السقيلبية الجميلة.

نأمل أن نحظى بكلمتكم اللطيفة لننشرها في عددنا الجديد الذي سيصدر قريباً إن شاء الله، كما نأمل أن تهدوا تحياتنا العطرة إلى جميع الأصدقاء وفي طليعتهم حضرة الأب خوري حنانيا عبد وشن والنجار الكرام. والمولى يحفظكم.

عبد الله حلاق

واستجابةً لطلب الأستاذ عبد الله يوركي حلاق، أرسلت له الكلمة التي طلبها، والتي قدّمته فيها إلى روّاد المركز الثقافي، وقد عمل على نشرها في مجلة الضاد بالعدد الصادر بتاريخ /٦/ حزيران سنة ١٩٩١، وقد جاء في الكلمة:

الحضور الأكارم، أسعدتم مساء وأهلاً بكم

ألطف النسائم هي تلك التي تهبّ على ربوعنا من صوب الشمال، من بوابات مدينة حلب الشهباء، وسرّ لطافة نسيم الشمال، أنّه يأتينا عليلاً محمّلاً بأنفاس أدباء وشعراء مدينة سيف الدولة الحمدانيّ –العطرة– وبطريقه إلينا يُحلّق فوق بساتين إدلب الخضراء، فتبتل أطراف أجنحته بعبق جنان أريحا وأزاهيرها، وفي آخر المطاف يصبّ جناه في نفوسنا، ماسحاً التعب عن جباه الكادحين، وفي سويعات المساء، يداعب بمرحٍ ورشاقة خصلات شعر الصبايا في مدينتنا.

أيها الإخوة إنه لشرفٌ كبيرٌ لهذا المركز أن يستضيف اليوم علماً شامخاً من أعلام الأدب في قطرنا، بل في وطننا العربي، الأستاذ الشاعر عبد الله يوركي حلاق، ذلك الرجل الإنسان الذي كرمته المحافل، وعرفته المنابر والإذاعات في أدنى البلاد وأقصاها، عرفته محدّثاً لبقاً وكاتباً متألقاً وباحثاً موضوعياً وشاعراً مغرداً ورجل السياسة الذي شغل منصب عضو في مجلس الأمة الاتحادي في القاهرة، ومما يزيد في بهجة لقائنا، أننا نستقبل اليوم معاً الأب الشاعر والابن الأديب الأستاذ رياض عبد الله يوركي حلاق.

مُنح شاعرنا الأستاذ عبد الله يوركي حلاق عدداً من أوسمة الاستحقاق تقديراً لنضاله المخلص والدؤوب في ميادين السياسة والثقافة والفكر والأدب لفترة تجاوزت الستين عاماً.

أيها الإخوة أشعر وأنا بحضرة رجلٍ كبيرٍ أنني مقصّر مهما تحدثت، إنسان كرّمته أوطان العرب الناطقة بالضاد.

باسمكم جميعاً أرحّب بضيفنا وبنجله الأستاذ رياض، فأهلاً بالأب وبالإبن ووجودكم معنا يُضفي على لقائنا روحاً قدسية.

علّق الأستاذ عبد الله يوركي حلاق في مجلته قائلاً: هذه كلمة عذبة تفيض شاعريةً ومحبة، وحسن ظنّ، قدّمنا بها الأديب المُجلّى الأستاذ أديب قوندراق رئيس المركز الثقافي في تلك البلدة الجميلة (السقيلبية) وأفاض في وصفنا والثناء علينا، حتى أخجل تواضعنا، وجعلنا نظنُّ أنه يعني غيرنا، فشكراً للأستاذ أديب كلمته الرقيقة النابعة من قلبه الطيب، وهنيئاً للسقيلبية برئيس مركزها الثقافي.



خلال الزيارة التي قام بها الشاعر الكبير عبدالله يوركي حلاق إلى السقيلبية
بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٩١

ويظهر في الصورة من اليمين أديب قوندراق رئيس المركز الثقافي، والأستاذ رياض عبد اللّه حلاق رئيس تحرير مجلة الضاد، والشاعر مفيد نبزو، والأب حنانيا عبدوش كاهن رعية السقيلبية، والشاعر عبد اللّه يوركي حلاق صاحب ومؤسس جريدة الضاد الحلبية، والأستاذ محفوض جروج.

الأستاذ عبداللّه يوركي حلاق رئيس تحرير مجلة الضاد

الأستاذ عبد اللّه يوركي حلاق عضو مجلس الأمة الاتحادي في القاهرة في زمن الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٥٨ – ١٩٦١

أُقيمت له حفلات تكريم في القاهرة وبيروت وبغداد والكويت وفي العديد من مدن فنزويلا.

يحمل وسام الاستحقاق السوري ووسام القدس ووسام مار أفرام السرياني برتبة فارس ومن أصدقائه ومعارفه: السيدة أم كلثوم، أحمد رامي، وصالح جودت، وصلاح ذو الفقار، ونجاة الصغيرة، والأخطل الصغير بشارة الخوري، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وشبلي الملاط، والشاعر الأردني يعقوب العودات.

زار السقيلبية بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٩١، سحرته بجمالها وطيبتها وكرم أهلها ولطف مناخها، فوقف على شرفة مقصف الرابية يتأمل سهل الغاب، سهل الخير، ويبسط كفيه: اللهم امنحي عمراً لأكتب القصيدة التي تليق بهذه البلدة الساحرة (السقيلبية) وأهلها الكرام. لكن القدر لم يمهله فاستعجل رحيله قبل أن يحقق أمنيته.

- رسالة من السويد

السويد هي أكبر بلدان الشمال الأوروبي ومن أجمل بلدان العالم ويبلغ عدد سكانها ٩,٥ مليون نسمة، وتضم السويد العديد من المناطق السياحية والمعالم التاريخية التي تجذب العديد من الزوار مثل البلدة القديمة والتي تضم أوبالا وفيسبي بالإضافة للعديد من القصور الملكية والقلاع الرائعة كما تحتوي السويد على العديد من المتاحف والمنتزهات والحدائق الغناءة ومناطق تتمتع بالجمال الخلاب وتقع في شمال السويد.

بريد الرابطة

رسالة من الوطن

وصلت الى هيئة تحرير مجلة رابطة المغتربين السوريين في السويد رسالة من السيد أديب قوندراق رئيس المركز الثقافي العربي في السقيلبية يقول فيها: أيها الاخوة بكل الامتنان نتلقى مجلتكم اللطيفة «الرابطة» والتي نستشف عبر كلماتها اصالة الانتماء وصدق الحنين وشفافية المحبة نفخر بكم ونعتز باخوة لنا أوفياء يحملون الوطن في قلوبهم وعقولهم، في حلهم وترحالهم ونلمس مدى حرصكم لمعايشة الوطن الام الذي تبهجكم اخباره الطيبة فتتواصلون معه رغم المسافة. وفي كل مرة تصلنا أعداد مجلتكم يطلع رواد المركز الثقافي على محتوياتها ونقرأ كل ما يكتب فيها حيث نبدأ بمعاً على الطريق وننتهي عند كلمات من القلب. نقرأ محتوياتها بشغف وسرور ونذكركم بالخير ونثني على جهودكم لرفع اسم وطننا الحبيب سورية عالياً.

كما اضاف بعض المقترحات التي من شأنها اغناء مجلتنا وهيئة تحرير المجلة ومجلس ادارة الرابطة تشكر الاخ اديب قوندراق على ما جاء في رسالته من كلمات طيبة كما تشكره جزيل الشكر على الملاحظات القيمة التي ابداها وستقوم هيئة التحرير بالأخذ بها اعتباراً من هذا العدد.

تحية الى الأخ اديب من كل مغترب سوري في السويد.

هيئة التحرير

مجلة رابطة السوريين في السويد

١٩٩٥

بريد الرابطة

رسالة من الوطن

وصلت إلى هيئة تحرير مجلة المغتربين السوريين في السويد رسالة من السيد أديب قوندراق رئيس المركز الثقافي العربي في السقيلبية يقول فيها : أيها الأخوة بكل الامتنان نتلقى مجلتكم اللطيفة ((الرابطة)) والتي نستشف عبر كلماتها أصالة الانتماء وصدق الحنين وشفافية المحبة نفخر بكم ونعتز بأخوة لنا أوفياء يحملون الوطن في عقولهم وقلوبهم، في حلهم وترحالهم ونلمس مدى حرصكم لمعايشة الوطن الأم الذي تبهجكم أخباره الطيبة فتتواصلون معه رغم المسافة.

وفي كل مرة تصلنا أعداد مجلتكم يطلع رواد المركز الثقافي على محتوياتها ونقرأ كل ما يكتب فيها حيث نبدأ بمعاً على الطريق وننتهي عند كلمات من القلب.

نقرأ محتوياتها بشغف وسرور ونذكركم بالخير ونثني على جهودكم لرفع اسم وطننا الحبيب سورية عالياً .

كما أضاف بعض المقترحات التي من شأنها إغناء مجلتنا وهيئة تحرير المجلة ومجلس إدارة الرابطة تشكر الأخ أديب قوندراق على ما جاء في رسالته من كلمات طيبة كما تشكره جزيل الشكر على الملاحظات القيمة التي أبداها وستقوم هيئة التحرير بالأخذ بها اعتباراً من هذا العدد .

تحية إلى الأخ أديب من كل مغترب سوري في السويد .

هيئة التحرير

- رســـالة من قبرص

١٠/٥/ ١٩٩٥ ـ نيقوسيا ـ قبرص

حضرة الأستاذ أديب قوندراق المحترم

تحية وسلاماً وبعد

إني أكتب لك هذه الرسالة بعد ما شاهدت شريط الفيديو للمحاضرة التي ألقاها الأستاذ غيث العبد الله عن جدنا المرحوم المعلم الياس الضاهر ((السقيلباوي)) لقد كانت فرحتي مزدوجة أولاً لأن المرحوم هو جدنا وأنا وريث اسمه، وثانياً لوجود شباب مثقفة وواعية ومحبة لهذه القرية ولتاريخها ولأهلها أمثالك وأمثال الأستاذ غيث ورحتم أنتم تبحثون وتسألون وتطالعون وتبذلون الجهد كي نتعلم ونتعرف على تاريخنا.

طبعاً ستتابعون المسيرة وستقدمون لنا المزيد عن تاريخ هذه البلدة الحبيبة وسنتعرف على الكثير الآخرين من رجالاتها اللذين اشتهروا في مجالات كريمة أخرى وصفات رائعة فلكم جزيل الشكر وأهنئكم من كل قلبي والله يعطيكم العافية والى لقاء آخر.

أخوكم الدكتور الياس الضاهر

ΚΛΙΝΙΚΗ ΛΥΚΑΒΗΤΟΣ



LYCAVITOS CLINIC

Δρ. ΗΛΙΑΣ ΝΤΑΧΕΡ
ΕΙΔΙΚΟΣ ΓΕΝΙΚΟΣ ΧΕΙΡΟΥΡΓΟΣ
(Γενική και Ορθοπεδική Χειρουργική)
τ. Επιμελητής Δυτικής Γερμανίας

Τηλ. Κλινικής 366200
Τηλ. Οικίας 465254
Φαξ 443561
Οδός Ολυμπίας 25
ΛΕΥΚΩΣΙΑ

Dr. ELIAS DAHER
SPECIALIST SURGEON
(General and Orthopedic Surgery)
Ex Registrar W. Germany

Tel. Clinic 366200
Tel. Res. 465254
Fax 443561
25, Olympias Str.
NICOSIA

نيقوسيا - قبرص.   Ημερομ. / Date ٥/١٠/٩٥

Όνομα / Name: حضرة الأستاذ أديب قندرامه المحترم.

تحية وسلاماً وبعد،

إني أكتب لك هذه الرسالة بعدما شاهدت شريط
الفيديو للمحاضرة التي ألقاها الأستاذ غسان عبد الله عن
جدنا المرحوم المعلم الياس ضاهر «الشلبادي».
لقد كانت فرحتي مزدوجة، أولاً لأن المرحوم هو جدنا وأنا
أحمل اسمه وثانياً لوجود شباب مثقفة وواعية ومحبة
لهذه القرية ولتاريخها ولأهلها أمثالك وأمثال الأستاذ
غسان وغيرهم أنتم تبحثون وتسألون وتظهرون وتبذلون الجهد
كي نتعلم ونتعرف على تاريخنا.
طبعاً ستتابعون المسيرة وستقدمون لنا المزيد عن تاريخ
هذه البلدة الحبيبة وستتعرفوا على الكثير الآخرين من
رجالاتنا الذين اشتهروا في مجالات كثيرة أخرى
وصفات الثقة.
فلكم جزيل الشكر وأهنئكم من كل قلبي والله يعطيكم العافية
إلى لقاء آخر.   أخوكم الدكتور الياس ضاهر.

- رسالة من الدكتور معروف رزوق

دالاس ـ تكساس في ١٤ أيار ١٩٩٣

الأخ الأستاذ أديب قوندراق

تحية طيبة وبعد، كانت فرصة سارة أن تعارفنا، كما وجدنا أن هناك روابط تجمعنا ليس كوننا من السقيلبية، وأهلنا أصدقاء قدماء، بل هناك تشابه في التطلعات القومية والوطنية وتشابه في وقع القوافي من حيث اللذات الثقافية.

أيضاً أودّ أن أشكرك على الحفاوة التي قمتم بها أثناء المحاضرة التي رتبتمون دقياتها والتي كنت قد أعطيتها في المركز الثقافي في السقيلبية عن الجلطات القلبية. آمل أنها وصلت إلى أفئدة البعض بالغاية المنشودة من الأصول الصحية.

بعد مغادرتي السقيلبية إلى دمشق زرت بعض المكتبات، فوجدت نسخة عن الكتاب الذي قدمتموه لي، كنت أهديتها لكم بحيث أرسلتها مع الدكتور عزيز.

لم أجد نسخة عن الكتاب الذي يتحدث عن قصة نهب السقيلبية والذي اسمه قصة الكفاح الوطني في سورية. ذكروا لي أن الكتاب طبع في حلب. سأكتب إلى أختي ليلى علّها تجد نسخة منه.

أود أيضاً إذا كان بوسعك أن ترسل لي بعض المعلومات المتعلقة بتاريخ السقيلبية. إذ منذ زمن طويل كنت شغوفاً بكتابة كتاب عنها إذا يوماً تثنى لي القيام بمثل هذا المشروع لي الأمل أن تكتبوا لي افتتاحيته. العنوان هو كما مكتوب في منتصف أعلى الصفحة.

كنا تحدثنا أيضاً عن تأسيس جناح أو قسم في المركز الثقافي تحت عنوان الأدب السقلوبي في الوطن والهجر وكثافة الأدب المهجري في أمريكا الجنوبية وخاصة الأرجنتين سأقوم بالاتصالات

والدراسة نحو هذا الموضوع، كما أنني سأطلعكم في حينه على النتائج أيضاً إذا كنت تريد بعض الكتب من هنا، الرجاء إعلامي.

دعنا نبقى على اتصال وشكراً لك وتحياتي إلى حرمك وإلى الجميع وخاصة الأستاذ حنا رستم ودمتم.

معروف رزوق

MARUF A. RAZZUK, M.D.
Cardiovascular, Thoracic and Vascular Surgery
3600 GASTON AVENUE
561 WADLEY TOWER
DALLAS, TEXAS 75246-1905

PHONE: (214) 823-7795
FAX: (214) 823-7797

دالاس تكساس في ١٤ أيار ٩٤

الأخ الاستاذ أديب قنوان

تحية طيبة وبعد، كانت فرصة سارة أن تعارفنا، كما أن
وجدنا أن هنالك روابط تجمعنا ليس كوننا من السقيلبية، وأهلنا
أصدقاء قدماء، بل هنالك تشابه في التطلعات القومية والوطنية
وتشابه في وقع القوافي من حيث اللذات الثقافية.

أيضاً أود أن أشكرك على الحفاوة التي قمتم بها أثناء
المحاضرة التي رتبتموها دقياً والتي كنت قد أعطيتها في المركز الثقافي
في السقيلبية عن الجلطات القلبية. آمل أن أكون وصلت إلى أفئدة البعض
بالغاية المنشودة من الأصول الصحية.

بعد مغادرتي السقيلبية إلى دمشق، زرت بعض المكتبات
فوجدت نسخة عن الكتاب الذي قدمتموه لي، كنت أهديتها لكم بحيث
أرسلتها مع الدكتور عزيز.

لم أجد نسخة عن الكتاب الذي يتحدث عن قصة زنوب
السقيلبية والذي اسمه قصة الكفاح الوطني في سوريا. ذكروا لي أن الكتاب
طُبع في حلب. سأكتب إلى أختي ليلى علها تجد نسخة منه. أود أيضاً
إذا كان بوسعك أن ترسل لي بعض المعلومات المتعلقة بتاريخ
السقيلبية. إذ منذ زمن طويل كنت مشغوفاً بكتابة كتاب عنها
إذا يوماً تسنى لي القيام بمثل هذا المشروع لي الأمل أن تكتبوا
افتتاحيته. العنوان أعلاه مكتوب في منتصف أعلى الصفحة.

كنا أيضاً تحدثنا عن تأسيس جناح أو قسم في
المركز الثقافي تحت عنوان الأدب السقيلبي في الوطن والمهجر
وكتابة الأدب المهجري هو في أمريكا الجنوبية وخاصة الأرجنتين
سأقوم بالاتصالات والدراسة نحو هذا الموضوع، كما أنني
سأطلعكم في حينه على النتائج. أيضاً إذا كنت تريد بعض
الكتب من هناك الرجاء إعلامي. دعنا نبقى على اتصال وشكراً لك
وتحياتي إلى أهلك وإلى الجميع وخاصة الاستاذ حنا رستم [illegible]

معروف رزوق

- رسالة من الميادين ومناسبتها

٢٢/ ١١/ ١٩٩٦

٢٣/١١/١٩٩٦ إلى الأستاذ أديب خوندة رئيس المركز الثقافي بالسقيلبية

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية وأشواق من ضفاف نهر السلسبيل محمّلة بعبق زهور الياسمين

أبثها إلى ملائكة الأرض أتباع رسول السلام عيسى بن مريم

عليه الصلاة والسلام أما بعد.

قد تعجز بل عجزت الكلمات عن البوح بما في النفوس

ولكن ليس بوسعي إلا أن أقول شكراً "ألف شكر لحسن

الضيافة وشكراً" ألف شكر لحسن الإصغاء ولي عودة
إنشاء الله

أخوكم
أسامة الرحباوي

جبريل أنت هدى السماء — وأنت أهل للعناية
أبسط جناحيك الذين — هما الطهارة والهداية
ومد الجلال من الكرامة — والصليب من الرعاية
فيما الربا [illegible] راية — والحرب للشيطان راية

أما مناسبة هذه الرسالة وحكايتها:

في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني لسنة ١٩٩٦ أقمنا أسبوعاً ثقافياً بعنوان: (أمسيات فراتية على ضفاف العاصي في السقيلبية)، وتضمن الأسبوع محاضرات ثقافية تُعَرِف بتراث الجزيرة السورية ومنطقة الفرات، وأمسيات شعرية وأدبية ومعرض للفن التشكيلي وخصصنا أمسية كاملة للغناء الفراتي.

تفاعل أهلنا في السقيلبية مع وقائع الأسبوع بشكل جيد وحرصوا على متابعة وقائعه بشغف وحب واهتمام، وفي ختام الأسبوع الذي استمر خمسة أيام. طلبت من الزميل العزيز السيد حنا رستم موسى مرافقة الضيوف إلى مقصف الرابية وهناك تبين أن المقصف محجوز لصالح حفلة عرس لأحد أبنائنا الأعزاء، فاعتذرت إدارة المقصف عن استقبال ضيوف المركز، وعندما هَمّ الضيوف بالعودة، انتبه أحد الحضور من أهل العرس فسارع إلى الضيوف واعتذر لهم عن موقف إدارة المقصف ودعاهم للانضمام إلى جانب المدعوين وخصص لهم مكاناً جيداً بين الحضور وقال لهم: إن ضيوف المركز الثقافي هم ضيوف على جميع أهالي السقيلبية، ورحب بهم وقدمهم إلى الحضور كضيوف أعزاء جاؤوا ليشاركوننا أفراحنا. (هذا الموقف ليس بالغريب على أهلنا الكرام في السقيلبية، هذا موقف من جملة مواقف أعتز بها وأكبر بأهلي في السقيلبية.

تلون الحفل بالأنغام والألحان والغناء الطربي الفراتي، تزينه المواويل البغدادية واللهجة الفراتية (العراقية) المحببة جداً في منطقتنا، غنى الضيوف فأبدعوا ورقصوا على أنغام وكلمات الأغاني السقلوبية الخاصة بالأعراس (حنيت كفي وما حنيت دياتي، يما رواحي عالحليب رواحي، لا تدحم السور يا وال والسور خلفه رجالو، طلعنا بدار بياضه ونصبنا الخيام، نخ الجمل قومي اركبي يا نايفه،

ياما ويا ياما وما حل الرحيل، وبخاطرك يا ياما عا زمان الطويل، يا مين عالباب؟ يا نحنا عا الباب، يا مناخد عروسنا يا منكسر الباب، هز الرمح وهز السيف وحطو بقلب المالو كيف، نحنا خدنا عروسنا وهون العز وهو الكيف، السهرة الحلم، لم يأت كتاب ألف ليلة وليلة على ذكر ليلة تضاهيها عذوبة ورقة وتنوعاً وجمالاً. وأشرقت أنوار الفجر وغادر كل إلى سبيله.

وبعد أيام من مغادرة الضيوف تلقيت رسالة من أسامة الرحباوي جاء في بعضها: تعجز الكلمات عن البوح بما في النفوس، ولكن ليس بوسعي إلا أن أقول: شكراً وألف شكر لحسن الضيافة وحسن الإصغاء.

أبث تحياتي إلى ملائكة الأرض، أتباع رسول السلام عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

ومرت الأيام وانطوت السنوات وحدث أن مجموعة من أمهات السقيلبية وأخواتنا في رابطة الأخوية (في دير السيدة العذراء) قمنّ برحلة اطلاعية وترفيهية إلى منطقة دير الزور ومنطقة الميادين (الرحبة) سابقاً، وكانت لهم استراحة في إحدى ساحات بلدة الميادين وهناك غنوا وسمع بعض من كانوا ضيوفاً على السقيلبية أصواتهن وتعرف عليهن من كلمات الأغاني التي سمعها في مقصف السقيلبية منذ سنوات. فاقترب وسأل وكان الجواب: نعم نحن من السقيلبية، هل سمعت بها أو تعرف أحداً من أهلها، نعم زرنا السقيلبية وكنا ضيوفاً على المركز الثقافي وشعرنا أننا كنا نعيش بين أهلنا وها أنتم في الميادين ونحن هنا إخوتكم وأهلكم، وتداعى مع الآخرين وقدموا لأخواتنا ما يحتاجونه وأكرموهن بما يليق.

زغردت إحداهن وهللت وصاحت من شدة فرحها واعتزازها بالانتماء إلى السقيلبية: شابوش لكل اللي عملوا على رفع اسم

السقيلبية عالياً في كل الوطن السوري. زارتني بعض الأخوات وحدثوني عما جرى معهن في الميادين وعبرن عن شكرهن وتقديرهن للمركز الثقافي بالسقيلبية.

(إن الجميل وإن طال الزمان به، لا يحصده إلا الذي زرعا)

أديب قوندراق

- رسالة من اليابان

١٩٩٧/١٢/١٥
الأستاذ أديب قوندراق المحترم
والسيدة أمينة قوندراق المحترمة.
تحية طيبة من اليابان وبعد.
أتمنى أنكم بخير وحياتكم جميلة وسعيدة
في السقيلبية.
قد انتهيتُ من كتابة الأطروحة التي
كتبتُ فيها عن تطور ريف سورية وتحولات
علاقات اجتماعية سكانية من نماذج المدينة
السقيلبية. كتبتُ كثيراً عن تركيب
العائلة وعلاقات كالقرابة والجيران والزواج
إلخ في الماضي والحاضر من آراء الناس لكي
نتصور كيف تغيّرت حياة اجتماعية عندما
صارت قرية إلى مدينة في سورية. سأقدّمها
إلى الجامعة في ٩ كانون الثاني لأنّ الجامعة
لن تقبل أطروحة قبل ذلك اليوم.
أنا شاكرة جداً للناس الذين تعرفتُ
عليهم في السقيلبية والذين ساعدوني كثيراً.
وأتذكر أوقات رائعة معهم.
أرسل لكم يا الأستاذ أديب والسيدة أمينة
أطيب تحية لعيد ميلاد السيد المسيح وعيد
رأس السنة. وأيضاً أريد أن أسلّم على
كل أصدقائكم الذين قضيتُ معهم أوقات
سعيدة في بيوتهم خلال إقامتي في
السقيلبية. كل عام وأنتم بخير.
أريد أن أراكم مرة ثانية في المستقبل
القريب. أريد أن أزور سورية في السنة
القادمة، حسبة الظروف، للدراسة.
أتمنى لكم ولعائلتكم صحة وسعادة
دائماً. المخلصة أكيكو موكاسا

وصلتني رسالة من اليابان، مؤرخة بـ ١٩٩٧/١٢/١١٥ مرسلة من الآنسة أكيكوموكاسا، جاء فيها:

الأستاذ أديب قوندراق والسيدة أمينة قوندراق

تحية طيبة من اليابان وبعد

أتمنى أن تكونوا بخير وأن تكون حياتكم جميلة وسعيدة في السقيلبية. لقد انتهيت من كتابة الأطروحة التي كتبت فيها عن تطور الريف السوري والتحول في العلاقات الاجتماعية والسكانية واتخذت السقيلبية نموذجاً، لقد كتبت الكثير حول تركيب العائلة، وعلاقات القرابة والجيران والزواج في الماضي وما أصبحت عليه في الحاضر معتمدة على الأحاديث الشفوية للناس الذين التقيت بهم

وتوضيحاتهم للتغيرات الحاصلة في العلاقات الاجتماعية من خلال الانتقال من حياة القرية إلى حالة المدنية (المدينة) في سوريا، سأقدم أطروحتي إلى الجامعة في ١٩٩٨/١/٩ وهو الموعد المحدد من قبل الجامعة لاستلام أطروحات البحث.

أنا شاكرة جداً للناس الذين تعرفت عليهم في السقيلبية والذين ساعدوني كثيراً، وأتذكر الأوقات الرائعة معهم. أرسل لكم أطيب تحية بعيد ميلاد السيد المسيح وعيد رأس السنة، وأيضاً أريد أن أسلم على كل أصدقائكم الذين قضيتُ معهم أوقاتاً سعيدة في بيوتهم خلال إقامتي في السقيلبية كل عام وأنتم جميعاً بخير.

أريد أن أراكم ثانية في المستقبل القريب، أريد أن أزور سوريا في السنة القادمة، إذا سمحت الظروف بذلك، أتمنى لكم ولعائلاتكم الصحة والسعادة.

المخلصة أكيكو موكاسا

من هي أكيكو موكاسا؟:

صبية يابانية في النصف الثاني من العقد الثالث من عمرها، تعرفتُ عليها من خلال زياراتها المتكررة لمكتبة المركز الثقافي في السقيلبية، كانت تتقنُ اللغة العربية قراءة وكتابة ومحادثة، وعلمت منها أنها موفدة من قبل جامعة طوكيو في اليابان إلى سوريا لإعداد أطروحة دكتوراه حول بنية وتركيب وتطور العلاقات الأسرية العائلية في سوريا والتغير الحاصل جرَّاء انتقال المجتمع السوري من الحالة الريفية إلى المجتمع المدني.

زارت العديد من المحافظات السورية ولكنها في نهاية المطاف اختارت محافظة حماه وقررت السكن والإقامة في السقيلبية التي اتخذتها نموذجاً لموضوع بحثها العلمي الاجتماعي.

لاقت الآنسة أكيكو ضيفة السقيلبية كل الاهتمام والرعاية والمساعدة، وقد خصصت لها مكتباً في المركز قريباً من المكتبة وأوصيت الزملاء جميعاً كي يحسنوا المعاملة وأن يقدموا لها كل مساعدة تطلبها من مراجع علمية وصور وفيديو لاستعراض أفلام المناسبات المختلفة، والتصوير، وطباعة ما يلزمها في خدمة البحث.

فالموضوع يعنينا نحن في سوريا مثلما يعني اليابان وربما أكثر.

تطورت علاقتنا مع الآنسة أكيكو وأدخلناها أجواءنا العائلية فعاشت حياتنا الاجتماعية عن قرب بل جعلناها تشاركنا حياتنا اليومية داخل منازلنا ومن خلال مرافقتها لنا في زياراتنا للأقرباء والأصدقاء ومشاركتها لنا حضور المناسبات العديدة (الخطوبات ومراسم وطقوس الزواج في الكنائس والحفلات ولزق العجينة وحلقات الدبكة والغناء وغيرها)

واتفقت مع مجموعة أصدقائي الكرام، كي تخصص كل عائلة يوماً في الأسبوع لاستقبال الباحثة أكيكو داخل منازلهم. وتمت الاستجابة بكل سرور.

ومن الأمسيات الحاضرة والراسخة في الذاكرة يوم تداعينا لقضاء سهرة الميلاد في بيت الصديق العزيز العقيد سمير ضاهر وزوجته المحترمة السيدة حنان البطرس (سيدة المجالس والمآدب الفاخرة والراقية، والمتحدثة اللبقة) حضر السهرة كل من الأصدقاء: (عارف أبو كرشه والصيدلي حنا حداد والمرحوم حكمت سنكري وعائلاتهم والآنسة أكيكوموكاسا). سهرة خالدة بكل وقائعها

ومجرياتها وأحداثها غنت لنا فيروز: ليلة عيد، ليلة عيد، وأنشد المرحوم حكمت سنكرى وكان صوته عذباً حلواً شجياً متقن الأداء، غنى لوديع الصافي وأسمهان ولفيروز، ورغم إتقان أكيكو للغة العربية إلا أن الشعر والأغاني تبقى عسيرة على الفهم بالنسبة للأجنبي وكنا نقرب لها مستعينين باللغة الانكليزية، وشاركتنا وغنت لنا باللغة الانكليزية أغنية بعنوان: (سانتا ماريا) سحرتنا بعذوبة صوتها وجمال كلمات الأغنية، فصفقنا لها طرباً.

وبهذا اللقاء العائلي الحميم ودعتنا الآنسة أكيكو، وكانت عَبَراتُها تنوب عن عِباراتها في الوداع.

فسلامُ اللّه عليك يا صديقتنا العزيزة أكيكو وعلى بلاد اليابان وأهلها.

- رسالة من جرجس ديوب كاترين "أبو عفيف" بمناسبة صدور كتابي الأول"المسيح في القرآن ووحدة الهدف"

إلى الأستاذ أديب قوندراق بمناسبة نشرك كتابك الأول

لقد عبرتَ العتبة. وسلكت الدرب أيها الأديب خطوة جريئة أهنئك عليها من كل قلبي خطوة اخترقت فيها غلاف التقصير الذي لف مدينتي من تكاسل مثقفينا وانشغالهم بموائد التسالي.

خطوة حملت عن الذاكرة أعباء الحفظ لتقدم لأجيال قادمة صورة عن إسهام حضاري لأبناء مدينتي.

خطوة اختصرت كثيراً من الجهد الذي ما فتئت الدائرة التي تديرها تبذله في البحث في مجاهيل الماضي وعتمته لتسقط ضوءاً على فعل مجيد في تاريخ مدينتي لتثبيته هوية خطوة متعددة بميزاتها عن كل أبناء جيلك أعطتك عمراً خالداً لمئات السنين كما أعت مدينتي موقعاً في خريطة الحضارة لبلدي يذكر بوجودها .

أما الموضوع فهو بلسم علاجي لجرح افتعله الجهل في جسم وطني. ما أحوجنا لعلاجه ولعمري لم يسعدني أكثر من قراءة التعبير الذي يعتمد على التفكير. وغير ذلك لا يعدو عن كونه أزهار بلا أثمار.

لقد لامست الحاجة الضرورية للمرحلة في عملك وبقيت دائماً محلقاً فوق مساحة الأذن في مخاطبة الناس.

أنهم صوان خطوة جريئة وعمل عظيم اجتمعا فيك أيها الأديب فعبرت بما نشرت. سر إلى الأمام دون أن تثبطك المعيقات. لأنها غالباً ما تأتي من مساحة الأذن. لك التهاني الحارة. وفقك اللّه

أخوكم جرجس كاترين

١٨/٢/ ٢٠٠٠

الى الأستاذ الأديب. أديب قندرلي. بمناسبة نشرك كتابك الأول.

لقد عبرتَ العتبة. وسلكتَ الدرب أيها الأديب.
خطوةٌ جريئةٌ أهنئك عليها من كل قلبي:
خطوةٌ قد اخترقت صيغ غلاف التقصير، الذي لف مدينتي، من تكاسل مثقفينا، وانشغالهم بجوائز التسالي:
خطوةٌ قد حلّت عن الذاكرة أعباء الحفظ. لتقدم للأجيال القادمة صورة عن إسهام حضاري لأبناء مدينتي:
خطوةٌ قد اختصرت الكثير من الجهد. الذي ما فتئت الدائرة التي تديرها، تبذله في البحث في مجاهيل الماضي وعتمته. لتسلط ضوءاً على فصل مجيد، في تاريخ مدينتي. لتثبيته هوية:
خطوةٌ متفردة تميزتَ عن كل ابناء جيلك. أعطتك عمراً خالداً لمئات السنين. كما أعطت مدينتي موقعاً في خريطة الحضارة لبلدي، يذكّر بوجودها:
اما الموضوع، فهو بلسمٌ علاجي، لجرح افتعله الجهل في جسم وطني، ما أحوجنا لعلاجه. ولعمري لم يصدني أكثر من قراءة النقد الذي يعتمد على التقليد. وغير ذلك لا يبعد عن كونه ازهار بلا أثمار:
لقد لامستَ الحاجة الضرورية للمرحلة، في عملك، وبقيتَ دائماً محلقاً فوق مساحة الأذن، في مخاطبة الناس:
أمام صنوان، خطوةٌ جريئة. وعمل عظيم، احتضنها فيك أيها الأديب، فقررتَ بما نشرت ... الى الأمام، دون ان تثبطك المعيقات، لأنه غالباً ما تأتي من مساحة الأذن:

لك تحياتي الحارة، وفقك الله

١٨/٢/٢٠٠٠
اخوكم جرجي كاتشه

- في رحيل أبي عفيف

قالوا: رحل... رحل إلى مكان بعيد ولن يعود.

وكوني أعرفه عن قرب وأعرف خصاله وبعض شمائله وسجاياه، تراني مدرك بأنه باق معنا ومقيم فينا كما هم العظماء الخالدون في صحائف الدهر وأوراق الزمان.

أراه باق في قلب كل من عرفه فأحبه، وهو باق في نفس كل من سمع عن بعض خلائقه فجلَّه واحترم وتاق إلى لقياه.

أراه باق في وجدان كل معذب من أبنائنا، ممن هده الحزن وأضناه الألم وأقعده المرض، فكان أبو عفيف تلك اليد البيضاء الرؤومة الحنونه تمتد من خلال موج الصعاب لتنقذ صاحب المعاناة. ويأخذ بيده إلى شاطىء السلامة والعافية، وهو الذي جعل لجمعية أخوية الرحمة مكانة سامية في نفوس أبناء مجتمعنا السقيلباوي.

أراه باق في أحاسيس ومشاعر أولئك الذين أوجعتهم الخلافات الأسرية وسوء التفاهم العائلي، فعاشوا تبايناً وتنافراً إلى حدّ كاد الخلاف يدمر البنية الأسرية ويشتت شمل أفرادها، ويتدخل ساعي الخير أبو عفيف ليحل الوفاق والوئام وتعود الحياة إلى جداولها العذبة لصافية.

كنا ننتظر وصوله إلى مجالس حوارنا والتي كانت تقام في منزل أحد الأصدقاء المغتربين، وكانت تلك المجالس تضم نخبة راقية من سويات علمية وثقافية وفكرية ومناقبية عالية وكان الجميع يصمت ويصغي عندما يتحدث أبو عفيف ,كان الحَكَم المطاعُ رأيه، فهو المناصر دائماً للحق والناطق بالحقيقة.

أبو عفيف عقل حاضر وخبرة واسعة اكتسبها من جامعة الحياة وحكمة حاسمة ومنطق حجة وإقناع.

قالوا رحل وأنا أراه بأم خيالي متنقلاً بمسيره اليومي بين الخمائل والمروج متفقداً محاصيل الحقول ومباركاً أغمار القمح وعطاءات البيادر، متغزلاً بعرائس الحور الناصعة بياضاً والباسقة شموخاً بفضل رعايته وعنايته لها في حقله.

قالوا رحل... رحل بعيداً وأنا أسمع صوته ممتزجاً مع تغريد الطيور التي أيقظته وعلى الأغلب هو من أيقظها لتنطلق معه في مسعاها اليومي لتأمين قوتها وقوت صغارها.

قالوا رحل... بينما أراه في عيون أهله وذويه وأراه حكاية فخر واعتزاز على لسان كل مواطن سقيلباوي في الوطن ودنيا الاغتراب. وما رأيته في وداعة لدليل على ما أقول.

معه كان يحلو السهر ويطيب الحديث وتعتز الأماكن بمن تضم.

ما أروع وأصدق ما قاله حبيبنا الدكتور طلعت كاترين نجل الفقيد الكبير في رثاء والده، وإليكم بعض مما جاء فيه:

"معه اشتممت أريج الطيب في عرق الكادحين. ويخاطبه: كيف لك أن تكون مصغياً قبل أن تكون متكلماً، وفاعلاً قبل أن تكون قائلاً. كم مرة تاهت صورتك بعيوني بين طفلٍ سريع الدمعة حيناً، وحيناً شاب يضج حياةً حيناً آخر، وبين شيخٍ عابقٍ بالحكمة والحلم أغلب الأحيان. ونذرت العمر للسلف والولد.

انحنت القامة وبقي القلب يحمل ذات الطيبة وبقي العقل يومض بالمعرفة والحكمة والحلم".

قالوا: رحل... وأراه خالداً فينا ومقيماً بيننا وحاضراً في جميع لقاءاتنا وسوالفنا وحكاياتنا وهكذا هو باق، باق ما دام فينا نبض حياة.

فقلت خلوا طريقي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

لروحك الرحمة، ولك المجد يا حبيب الكل -أبو عفيف- ولذكراك الخلود وحسن البقاء.

أديب قوندراق

٢٠١٨/٤/٣٠

- لماذا غيث؟

علمت أن نخبةً من أبنائنا في السقيلبية ممن أنعم اللّه عليهم بما يستحقون، عازمون على تكريم الأستاذ غيث العبد اللّه تقديراً منهم لما قدمه ويقدمه لمدينة السقيلبية وجميع أبنائها في الوطن وبلدان الاغتراب والمهجر، من خدمات جليلة على امتداد عقود دون تردد أو تذمر أو شكوى، وهم لا شك يعرفون أن هذا الجهد إنما هو على حساب وقته وتعبه وماله، واعترافاً بجميل أفعاله وبصماته المشرقة قرروا ردّ التحية بمثلها . وربما يقول قائل: لماذا غيث العبد اللّه؟

إذا كان هنالك من يجهل سبب هذا التكريم أوضح:

غيث العبد اللّه، لأنه الجواب الدقيق والشافي على كل سؤال يسعى إليه طالب المعرفة حول حقيقة السقيلبية منذ تأسيسها قبل مئتي عام وحتى وقتنا الحاضر.

غيث العبد اللّه، لأنه ذاكرة السقيلبية وخزان ذكرياتها والموثق لأهم أحداثها، وهو الأرشيف الذي يعود إليه كل باحث للتعرف على حقيقة حدث وقع في زمن غابر.

غيث العبد اللّه، لأنه بمفرده مؤسسة إعلامية (إخبارية ومصورة) نشيطة ومتكاملة المهام، وهو أيضاً وكالة أنباء موثوقة تعمل على إيصال الخبر طازجاً إلى أهلنا وأبنائنا في جميع أنحاء العالم لحظةً بلحظة، وهو صلة الوصل بيننا وبين أبنائنا في القارات الخمس وبفضله ينتصرون على الشعور بالغربة وهو الذي يجعلهم يعيشون ويشاركون أبناء وطنهم أفراحهم وأتراحهم ويتأثرون ويتفاعلون مع أحداثه.

غيث العبد اللّه، لأنه بسمة الصغار وفرح الطفولة وهو الأنشودة التي تغنيها الأم لصغيرها في مهده، مربتة على جسده الطري

بلمسات ووشوشات ناعمة لينام آمناً مطمئناً. وهو رفيق الأطفال في رياضهم ورحلاتهم الخلوية بين أحضان الطبيعة، يركض معهم خلف الفراشات، ويرشق على وجوههم مداعباً مياه النبعة والجداول، ويقطف لهم بعض ما تجود به أشجار الوادي من طيبات الثمر. وتراه في أيام الأعياد يساعد الطفولة لحمل سلال البيض وصور القديسين، ويقف معهم على الأبواب وهم ينشدون: إفرحي يا بيت عنيا، وإذا ما تعثر أحدهم بكلمة ردده بها وتابع معه كي لا يشعر الصغير بحرج أمام زملائه، أما إذا رأى طفلاً بائعاً متجولاً لأنواع من الحلويات الشعبية يحمل طبقه فوق رأسه الصغير، لاحقه بعينه الحانية (عدسة كميرته) عسى الآخرون يدركون مكانه ويشترون منه ليعود بعد تجواله الطويل غانماً راضياً لما كسبه من تعب جسده الطري.

غيث العبد الله، زغرودة الأعراس وكأس الخلاص، وهو أيضاً دمعة المفجوعين وعزاء المحبين بمن رحل.

غيث العبد الله، المتتلمذ على أدب جبران، والمتقمص لروحانيته، والمتأثر بفنه ورسوماته، وهو الناطق برومانسيته وبحروفه، هذا الغيث جعل من الدير الذي يضم جثمان جبران خليل جبران والقابع تحت ظلال أشجار الأرز العتيقة في بلدة بشري على كتف وادي قاديشا جعل منه قبلة لعشاق الأدب الجبراني ومحجاً يقصده المحبون لأدب جبران في كل عام. وعلى رأسهم بالطبع غيث العبد الله والذي بفضله تعرفنا على الفيلسوف اللبناني الكبير وهيب كيروز حافظ متحف جبران وقد شرفنا بزيارته والإقامة بيننا في ربوع السقيلبية البلدة التي أحبها وعبر عن احترامه لأهلها ولثقافتهم

وحبهم للمعرفة فأقام بيننا بضعة أيام كانت غنية بالمحاضرات واللقاءات الثقافية.

غيث العبد الله، الحافظ والعارض للتراث، تراث السقيلبية بكل أنواعة ومواضعه وأماكنه وفنونه.

غيث هنيئاً لك حصادك الوفير وقد تكدست أغمار محبة أهلك لك فوق بيادرك.

غيث مبارك عليك هذا الإجماع وهذا الحب وهذا التقدير. غيث... وكل الذين دعوا وساهموا بهذا التكريم الذي أنت جدير به، أرى في كل منهم موضع وموضوع تكريم لدور أداه في خدمة أهله وبلده، لهم جميعاً شكري ومحبتي وتقديري، وأخص بهم رائد الدعوة الدكتور طلعت كاترين، نعمة الله فينا وعلينا، نصلي إلى الله ليحفظه لنا ولوطننا الحبيب يداً تمنح الشفاء والصحة لمن يحتاجها

يا نفس إن قال الجهول: الروح كالجسم تزول وما يزول لا يعود قولي له: إن الزهور تمضي ولكن البذور تبقى وذا كنه الخلود.

أديب قوندراق
٢٠١٦/٤/١٨

وردّ غيث العبد الله

قبل أن أكتب حرفاً أو أنجز لوحة أو صورة في حب السقيلبية، وقبل أن أكتشف جبران وأتعرف عليه وأطلع على أدبه وفنه، ثمة أستاذاً مثقفاً ومربياً كبيراً.. ومعلماً اكتشفني ورعاني وأمدني بالقوة المعرفية لتنمو مواهبي وتطلعاتي.

بفضله و"منذ المرحلة الثانوية من دراستي".. بفضل أستاذي أديب قوندراق مشيت على الطريق الصحيح في حب السقيلبية وتوثيق تراثها وفيما بعد "يومياتها وأحداثها."

لقد غرس فيّ بذرة التعلق بالسقيلبية والحفاظ على هويتها من الضياع حيث حافظ هو ودافع عن هذه الهوية من خلال مؤلفه الهام (السقيلبية تاريخ وذاكرة).

وكم أنا سعيد الآن يا أستاذي ومعلمي بهذه الشهادة التي كتبتها اليوم عني والتي لا أعتز بها فقط بقدر ما أعتبرها وساماً خالداً معلقاً على صدري وعلى جدار الذاكرة دائماً. وما أنا عليه اليوم ماهو إلا حصيلة لجهود كبيرة أحاطتني ومدتني ووقفت إلى جانبي من شخوص وأمكنة وأعلام وذكريات ومشاعر وغير ذلك. ومن أهم هؤلاء أستاذي الباحث أديب قوندراق بشخصيته النيّرة المنفتحة والمتفاعلة.. المحب السخي القلب والكف.. فلتمنحك السماء يا أستاذي العمر المديد والصحة والعافية والعطاء المتجدد.

غيث العبدالله

٢٠١٦/٤/٢٠

- ليلة العشرين من نيسان

ليلة شكلت بهيبتها ودلالاتها انعطافاً هاماً في الذهنية الشبابية السقيلباوية وارتقاءً صاعداً في سُلَم التمدن والحضارة . وتوثيقاً لمعاهدة حب جديد أبرمت بين السقيلبية من جهة وبين شبابها العاشقين قيمها وتراثها وفضائل رجالاتها, وعهداً بأن لا يكونوا في غيرها من المدائن, ولن يكونوا لغيرها من البلدان حتى وإن جار الزمان عليها بكيده.

ليلة تحولت فيها حديقة مقصف الرابية في السقيلبية إلى حديقة ملكية- أرستقراطية. تشهد حفل تكريم فاخر بمعانية ورمزيته لإنسان جَسد محبته لبلده عطاءً ليس له حدود, ولا يخضع لقيود, تكريم للأستاذ غيث العبدالله, احتفاء لم تكرم البلدان الراقية عظمائها بأفضل منه.

كل نفس تتوق إلى الكمال فتسعى إليه لتقترب منه أو تناله، أو تبقى تعيشه حلماً، وما رأيته وعشته في ليلة العشرين من نيسان أذهلني وأنا أتأمل لوحة كاملة تعانقت مفرداتها مع حضورها بخيوط طيفية من حب ناعم شفاف، وتمازجت ألوانها بحرفية عالية، وتناغمت موسيقاها مع كلماتها لترسم لوحة طبيعية نفخ فيها نيسان روحه فنطقت حباً وتباهت جمالاً وتصاعدت منها أنشودة الحياة .

لوحة أبدعتها عبقرية إرادة شباب محب للحياة والإنسان، لوحة تختلف عمَّا رسمه وأبدعه دافنشي وأنجلو من لوحات تزين كنيسة روما فهذه جامدة ميتة ولوحتنا تنطق فيها الحياة، وأجمل ما في الحياة هي الحياة وأعظم ما في الحياة هم أبناؤها، المخلصون لها والمحافظون عليها .

ملأتني الغبطة ففرحت وهكذا كانت مشاعر من هم حولي من الحضور، رأيت السعادة بأم عقلي تشاركنا وتتجول بيننا وتجالسنا أحياناً.

مبروك عليك أيها المُكَرم والمحتفى به غيث العبدالله، وأنت الجدير إذ وحدت أبناء بلدتك على رأي وإجماع هو حبهم لك. والشكر لكل من شارك وساهم من أهلنا الخيرين ونسأل الله أن يباركهم في أتعابهم وأرزاقهم ويحفظ عليهم نعمة الصحة والشباب.

شكراً دكتور طلعت كاترين وكنت المايسترو المبدع في قيادتك جوقة الفرح وقبلتي على جبينك العالي تهنئة مني بنجاحك وتميزك وطيبتك وحبك الكبير لبلدتك ووطنك وأهلك.

ليت ليلة العشرين من نيسان تعاودنا، وتزور ربوعنا الطيبة، ولو كل سنة مرة، لتتحول إلى تقليد سنوي يشكل محرضاً وحافزاً لمزيد من العطاء والإبداع في صفوف شبابنا وفي مختلف ميادين حياتنا، ويصبح لسان حالنا:

بروحي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

وإذا لا سمح الله غادرتنا ولن ترجع إلينا، سوف يكون حزننا على افتقادها فاجعة تنسينا بهجة الذكرى وينبري من يشمت بنا وهو يقول:

وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

أديب قوندراق

٢١-٤-٢٠١٦

- صفحة مرايا وصور



نشرت صفحة "مرايا وصور" الفيسبوكية مقالاً عني جاء فيه:

الأستاذ أديب قوندراق المثقف الهادئ هو واحدٌ من أعلام الثقافة في مدينة السقيلبية، جمع في سنوات عمله بين العمل التعليمي الثقافي والفلسفي... تشع الثقافة في أحاديثه وكتاباته للناس وهو أحد الذين تكاملت وتلاقحت جملة معارفه الفلسفية والثقافية والإدارية والتربوية لتجعل منه كاتباً ومثقفاً متميزاً. هو رجل شغوف للعلم والمعرفه والاطلاع على كافه المواضيع ليتعلم منها كل ما هو جديد، لا ينظر إلى ما حوله من مواقف وأحداث كما ينظر إليها أي شخص عادي، بل ينظر إليها بتدبر وتمعن ويحللها ويستنتج منها مواطن الصواب والخطأ فيها ويحولها لمعلومات مفيده.

عمل مدرساً لمادة الفلسفة وعلم الاجتماع في ثانويات السقيلبية، ثم مديراً للمركز الثقافي العربي في السقيلبية حيث لعب دوراً هاماً في تنشيط الحياة الفكرية والثقافية والفنية في مدينة السقيلبية. مثل محافظة حماه في الندوة العلمية حول الاتفاقية الدولية للحفاظ على التراث الثقافي غير المادي المنعقدة في جامعة حلب ٢٠٠٥.

قدم العديد من المحاضرات الثقافية في عدد من المراكز الثقافية السورية وكان أهمها محاضرة بعنوان "اللهجة العامية بين الفصحى والآرامية، السريانية" وله إسهامات تجعل المرء يقف باحترام وإجلال أمام عطائه الذي جسد أصالته وعمق انتماءه إلى وطنه ومدينته السقيلبية حيث كتب عنها الكثير وتجسد ذلك كله في إنجاز كبير له وهو كتابه (السقيلبية تاريخ وذاكرة) الذي يعد أول من ألف كتاباً بهذا الخصوص محولاً ذلك التاريخ الشفهي إلى تاريخ مكتوب.. أما كتابه الثاني فهو (المسيح في القرآن ووحدة الهدف) الذي طبع مرتين. وجاء على لسان الناشر كقراءة في سطور الكتاب: قلم جريء لنفس متشكلة من الخير والمحبة والصدق يطرح مكنونها الكاتب أديب قوندراق ضمن كتابه المسيح في القرآن الكريم ووحدة الهدف.

نتمنى للأستاذ أديب قوندراق موفور الصحة والعافية والعطاء الدائم.

وردّ أديب قونداق

جاء في كتابي (السقيلبية تاريخ وذاكرة) الشكر الجزيل لملهمتي الرائعة التي رافقتني في ديار غربتي، فحملتها في قلبي وفي وجداني وسيجتها بأهداب العيون، نظمتها قصيدة أتغنى بجمال طلعتها وبهاء صورتها وطيب شمائلها وصفاء نيتها حتى غدوت متصوفاً في

عشقها . أبتهل إلى الله تعالى بخشوع كي لا ينضب زيت مصباحها علها تبقى منارة ترشد إليها كل سفينة أتعبها السفر، ملهمتـــــي هي حبيبتي الســـــــــقيلبية.

شـكراً لكم يا هَلـــــــــي وأنتم هلـي.

(آنـو شعانيخً يَهَشـــوَع)

ومعنى ذلك: نحن أنصارك يا يســوع

الشـعانين كلمة سريانية آرامية من الفعل: شًعَن ومعناها في العربية:

أيد، دعم، ناصر، وثق بـ، وجمعها في السريانية يكون بإضافة يـن (شـــعانين ومعناها: مؤيدو، داعمو، أنصار) وأحد الشـعانين هو اليوم الذي خرج فيه أنصار يسـوع من أورشـليم وقد سـمعوا بقدومه إليها،

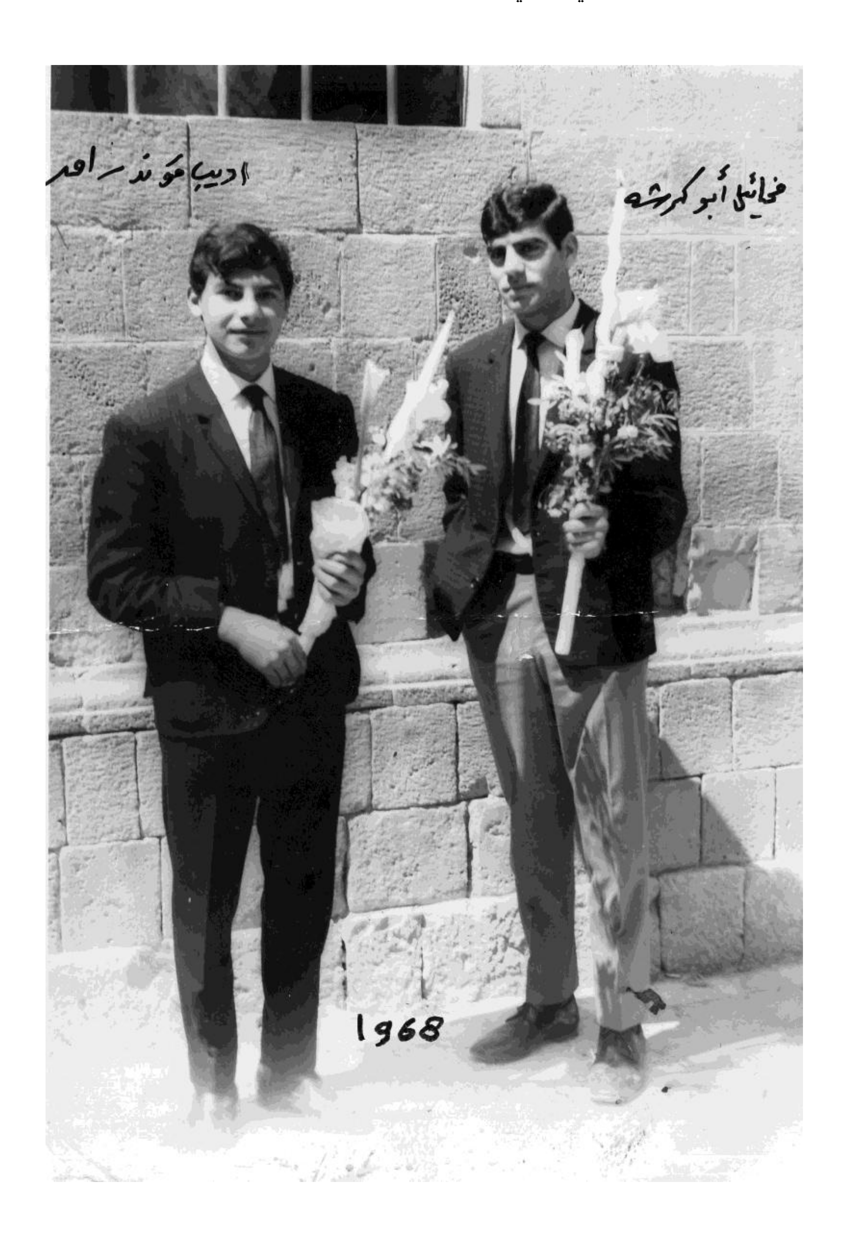
خرجوا لاستقباله وهم يلوحون بأغصان النخيل ويفرشون دربه ببعض من ثيابهم وأغصان النخيل التي يحملون ويهتفون: أوصنا لابن داود، مبارك الآتـي باسم الـرب، أوصنا في الأعالـي، ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يســـــوع الــــذي مـــن ناصـــرة الجليـــل.

أما كلمة أوصنا فهي عبرية من أصل آرامي وتعني (خلاصنا، رجاءنـا) والسـلام نرجـوه لجميـع أهلنـا في سـوريا الجريحـة.

أما كلمة فصـح هي الأخرى عبرية من أصل آرامي (والمهتم باللغات يدرك أن نحو ثمانين بالمئة ٨٠٪ من اللغة العبرية مأخوذة عن

اللغة الآرامية وكلمة فصح تعني: القفز من إلى. الانتقال من حال إلى حال أفضل ولذا نجد العبرانيين (اليهود) يحتفلون بعيد الفصح الذي يعني بالنسبة لهم الانتقال من حالة العبودية التي عاشوها في ظل الحكم الفرعوني إلى أرض كنعان والتي يطلقون عليها أرض الميعاد، أما نحن المسيحيون نحتفل بعيد فصحنا احتفاءً بانتقال السيد المسيح من الموت إلى الحياة وقيامته في اليوم الثالث بعد موته على الصليب.

هنالك الكثير من الكلمات العبرية والآرامية وحتى اليونانية نقرأها في الأناجيل دون شرح معناها ولا الآباء الكهنة يشرحون معنى هذه الكلمات أو الجمل.


اديب
مخائيل أبو كرشه
1968

تعقيباً على سلسلة مقالات كتبتها على صفحتي على الفيس بوك في حزيران ٢٠١٤بعنوان (نيرون ظالم، أم ضحية مؤامرة) كتب الدكتور طلعت كاترين هذا التعليق:

أجمل المتع متعة المعرفة. وفي كل إطلالة لك أستاذنا العزيز تزيدني يقيناً بذلك.. بما تقدمه لنا من معرفة تجلب النشوة للنفس.

أستاذنا الغالي لك كل الشكر على هذا العرض الممتع لشخصية خلافية مثل نيرون.

الملفت أستاذنا هو ذلك التناقض الهائل بالمعلومات حسب مصادرها. وأين تقع الحقيقة؟ أدعوك لقراءة الويكيبيديا وعرضها لحياة نيرون. لاشك حجم الخلاف بالمعلومات مثير بشدة. مع أني مقتنع معك تماماً بأن ما نقرأه من تاريخ لا يمثل بالتأكيد حقيقة ما كان يجري. شكراً جزيلاً أستاذنا العزيز ودمت لنا نبعاً من المعرفة والعطاء.

عزيزي الدكتور طلعت كاترين

عزيزي الدكتور طلعت كاترين، لا شيء يسعدني بقدر قراءتي لمشاركاتك وبخاصة تعليقاتك على ما أكتب، عندها فقط أشعر بقيمة ما أكتب وبأهميته، لأن كتابتك نابعة من متابعة دقيقة، لا تفلت كلمة ولا جملة من المحاكمة والتدقيق، صدقني دكتور طلعت أني أفتخر وأعتز بك وليس في قولي مرضاة أو مجاملة أنت فوقهما، عندما تكتب في الفلسفة وسبق لك أن كتبت أرى صورتك وأنت تجلس مع سقراط وتلاميذه (الحكماء السبعة) وعندما تكتب في علم النفس وسبق أن قرأت لك رداً في هذا المجال. تراني أبتسم إعجاباً

بهذا الطبيب الشاب الموسوعي حتى لتبدو وكأنك أحد تلاميذ فرويد وأنك صديق لأدلر وغوستاف يونغ. تلتقط الشعر بخيال شاعر، وتكتب الخاطرة بريشة ومهارة أديب محترف متمكن، بارك اللّه بك وليحفظك لنا يا موضع فخرنا. عزيزي الغالي الدكتور طلعت، لا أشك أنك قرأت الأجزاء الأربعة التي كتبتها عن نيرون ومصادري كانت مستمدة ومعتمدة على موسوعة قصة الحضارة لوول ديورانت، الذي أحترم كتاباته كثيراً وأنا كتبت ما كتبت لأرد به على ما جاء في الأنسكلوبيديا المليئة بحسب رؤيتي بالمغالطات والأحاديث المناقضة للعقل ومنطق الأحداث وآثارها، ليست الموسوعة بريئة من أصابع خفية أنت تدركها وتدرك مدى قوتها وسيطرتها على الإعلام بكل أشكاله. الحديث يطول وليس هنا مجاله المناسب، أنا لا أصدق ما جاء في الموسوعة من أن نيرون كان يسرق الناس في الشوارع ويقطع الطرقات على المارة. أي حديث سخيف يُنسب إلى موسوعة. هذه مكيدة وليست بموسوعة، نعم أمر بقتل أمه من أجل إنقاذ الأمة والإمبراطورية من سيدة غدارة وهو الذي يعرف أمه أكثر من جميع شخوص الموسوعة. نيرون يا دكتور طلعت كان (رياضياً ومغرماً بالأدب والشعر والفنون الراقية. نيرون تربى على الأخلاق الرواقية التي لقنه إياها سنكا المعلم والمربي ذائع الشهرة في عصره. نيرون اعتنى بإقامة مرافق الخدمات الشعبية: المدرجات والمسارح والحمامات والقصور التي أسكن فيها فقراء روما أثناء تعرض روما للحريق بمكيدة يهودية كانت تشكل امتداداً لثورة اليهود في أورشليم ضد روما. نيرون يا دكتور بكاه فقراء روما وهو الذي أنصف حياة العبيد. نيرون لم يأتِ امبراطورٌ عظيمٌ بما أتى به من إنجازات. حديثي هذا يعتمد على آثار باقية ولا تزال قائمة والآثار هي أصدق من يتحدث في التاريخ. عندما أقرأ التاريخ والدين، أنطلق من منهج

ديكارت وأراعي نصائح ابن خلدون أعظم من كتب في التاريخ على مدى العصور، والحاكم عندي على الأحداث وكتابة التاريخ هو العقل كما يراه ابن رشد والمعتزلة لا كما يراه الأعراب والأشاعرة. والإقرار بما يراه المنطق ويقبله العقل. عندما أقرأ للدكتور طلعت كاترين تتفتح أمامي آفاقاً على المدى الواسع وتنشط قريحتي وتزدهر الكلمات على لساني. أسعد الله صباحك وجميع أوقاتك يا صاحب الوجه المشرق والابتسامة الساحرة، دمت لنا كبيراً في جميع عطاءاتك.

أديب قوندراق

- الأسبوع الثقافي الإيراني في المركز الثقافي في السقيلبية



صباح يوم الثلاثاء المصادف ٢٧/ ٨/ ١٩٩٦ تلقيت هاتفاً مسجلاً مصدره وزارة الثقافة جاء فيه: السيد رئيس المركز الثقافي العربي في السقيلبية، سوف يصل إلى مركزكم لحضور افتتاح الأسبوع الثقافي الإيراني، الوفد الرسمي الإيراني المؤلف من:

- الدكتور أحمد بهشتي عضو مجلس الشورى (رئيس جامعة طهران).
- الدكتور علي آذر شب رئيس قسم العلاقات العربية الإيرانية.
- السيد حسين شفيعي الملحق الثقافي في السفارة الإيرانية بدمشق والمطلوب الاهتمام والعناية ومرافقة الوفد لزيارة أفاميا .

وزيرة الثقافة

وصل الوفد الإيراني وبعد استراحة قصيرة انطلقنا إلى أفاميا وعملتُ كدليل سياحي وشرحت لهم تاريخ بناء هذه المدينة على يد سيلوقس نيكاتور أحد القادة العظام للإسكندر المقدوني وكان ذلك في سنة ٣٠١ ق.م وأطلق على المدينة اسم أبامي تيمناً باسم زوجته الفارسية وجعل منها العاصمة الحربية لملكته السلوقية واتخذها قاعدة للجيش السلوقي والخزينة الحربية.

زارها الكثير من الأباطرة وأغدقوا عليها المال والهبات، ومن أهم الزوار أنطونيو وكليوباترا وحظيت المدينة بعناية خاصة عندما وصل الأباطرة السوريون إلى عرش روما ابتداءً من سبتيمو سسفيروس زوج ابنة حمص الخالدة جوليا دومنا وانتهاءً بالإمبراطور فيليب العربي الغساني وأصله من مدينة شهبا .

اشتهرت أفاميا بكرومها الجيدة وثمارها الشهية وخمورها التي ملأت شهرتها الدنيا، وكانت تصدر كميات كبيرة منها إلى الإسكندرية عبر ميناء أوديسا (اللاذقية)

شكلت أفاميا تجمعاً مسيحياً كبيراً وبني فيها العديد من الكنائس والكاتدرائيات، وساهم أساقفتها في المجامع المسكونية المقدسة. وغدت أفاميا مركزاً فكرياً وفلسفياً، أنجبت أحد كبار زعماء الفلسفة وهو بوسيدونيوس الأفامي، ومن أفاميا كان يوليوس أبوليوس أول كاتب روائي في التاريخ، واشتهر فيها عدد كبير من الشعراء، وقدمت العديد من الفرسان وقادة الفيالق والجيوش للامبراطورية الرومانية.

وقف أعضاء الوفد على أهم معالم أفاميا، لكنها كانت وقفة على أطلال مدينة كانت يوماً حاضرة الدنيا وقبلتها، ويؤسفني أيها الأصدقاء الأعزاء أن أقول لكم أن أفاميا التي بنيناها في عصرنا السلوقي، تم تدميرها على يد جحافل كسرى، بعد أن تم أخذ خمسين ألفاً من أبنائها (العمال المهرة) أسرى إلى بلاد فارس، ولربما أن أحدكم أو جميعكم أحفاد لرجال من هذه المدينة. فإيران الفارسية دمرت ما ترونه بأم العين، ولكن إيران الثورة الإسلامية ترمم وتبني ما خربته الحروب، تناصر الحق وتدعم أهله وتحارب الشر وتعمل على إسقاط راياته السوداء أينما وجد.

أفاميا كنز أثري منهوب منذ العهد العثماني والاستعمار الفرنسي وما يزال النهب مستمراً لكن هذه الأيام على أيدي لصوص دُعاة الثورة.

وفي السابعة مساءً وبحضور حشد كبير من المدعوين والرسميين وأبناء منطقة الغاب تم افتتاح الأسبوع الثقافي (معرض للكتاب، معرض للفنانين التشكيليين والأعمال اليدوية، محاضرات وأفلام سينمائية)

وبعد الانتهاء من وقائع اليوم الأول، دعوت الوفد الضيف إلى مقصف عين الورد ومراعاة لعضو مجلس الشورى اخترنا الجلوس في المكان المخصص للزائرين بعيداً عن موائد الخمر وحرصت على دعوة الأب حنانيا عبدوش الذي أكن له كل تقدير واحترام، فهو رمزنا وموضع فخارنا في عشق الثقافة وأهلها، يعجز اللسان عن وصف جمالية طبيعة مسبح عين الورد فالنوافير تغدق رذاذها في الفضاء معانقة خيوط الأنوار الملونة والنسمات مبللة بندى الرطوبة وأنفاس السعداء، منظر سُحِرَ الضيوف به وسمعت تعليقاً من الدكتور محمد علي آذر شب: عشت في النمسا خمس سنوات قضيتها في فيينا، ولكن ما أراه في هذه المدينة الساحرة فاق ما رأيته حتى في فيينا . لم يسحرهم المكان فقط وإنما حديث الأب حنانيا عبدوش كان لهم خمرة روحية وهو يتحدث عن الموسوعة التي كتبها الشاعر والكاتب اللبناني الكبير جورج جرداق

(الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) خمسة أجزاء وملحق، يبين فيها جورج جرداق أن الإمام علي هو أفضل نموذج تجلت فيه القيم الإنسانية كالعدالة والحكمة والإنصاف والشجاعة والقيادة والعلم على مر التاريخ. وراح حضرة الأب حنانيا يستعرض لنا الأجزاء الخمسة:

١- علي وحقوق الإنسان، وقد سبق الإمام علي مفكري أوربا إلى إدراك هذه الحقوق.

٢- بين علي والثورة الفرنسية.

٣- علي وسقراط (يلتقيان على كل صعيد)

٤- علي وعصره.

٥- علي والقومية العربية.

والملحق الذي كان بعنوان: روائع نهج البلاغة.

تابع الضيوف حديث الأب حنانيا بانبهار ودهشة: كيف لهذا الرجل المسيحي أن يعرف ما لا نعرفه عن إمامنا التقي ومن أين جاء جورج جرداق بكل الذي جاء به عن علي؟!! الضيوف كانوا يتقنون اللغة العربية عدا الشيخ عضو مجلس الشورى فكان يتابع من خلال ترجمة الدكتور آذر شب. أما أنا فكنت أُنقل نظري ما بين تأملي لوجه الأب حنانيا وقد رأيت فيه محاضراً فذاً يحاضر في طلبة يحملون شهادة الدكتوراه، ومتابعتي للتغيرات والتبدلات لملامح وتعابير ترسمها كلمات الأب حنانيا في عيون الضيوف، يا فخرنا، يا رمزنا، ما أعظمك.

حضرتني في تلك اللحظات القصيدة التي كتبها جورج جرداق بعنوان: هذه ليلتي وحلم حياتي بين ماضٍ من الزمان وآتي تلك القصيدة التي غنتها السيدة أم كلثوم في سنة ١٩٦٨ وهي القصيدة الأولى التي يلحنها محمد عبد الوهاب لها، وقد جاء فيها ما يناسب مشاعري وحالتي النفسية :

هذه ليلتي وحلم حياتي ... بين ماضٍ من الزمان وآت

الهوى أنت كله والأماني ... فاملأ الكأس بالغرام وهات

بعد حين يهجر الحبُ دار ... والعصافير تهجر الأوكار

وديارٌ كانت قديماً ديارا ... سنراها كما نراها قفار

والكلمات التالية من الأغنية تُخاطب قدس الأب حنانيا عبدوش:

يا حبيبي وأنت خمري وكأسي

ومنى خاطري وبهجة أنسي

فيك صمتي وفيك نطقي وهمسي

وغدي في هواك يسبق أمسي

ملء قلبي شوقٌ وملء كياني

هذه ليلتي فقف يا زماني

سوف تلهو بنا الحياة وتسخر

فتعال أُحبك الآن أكثر

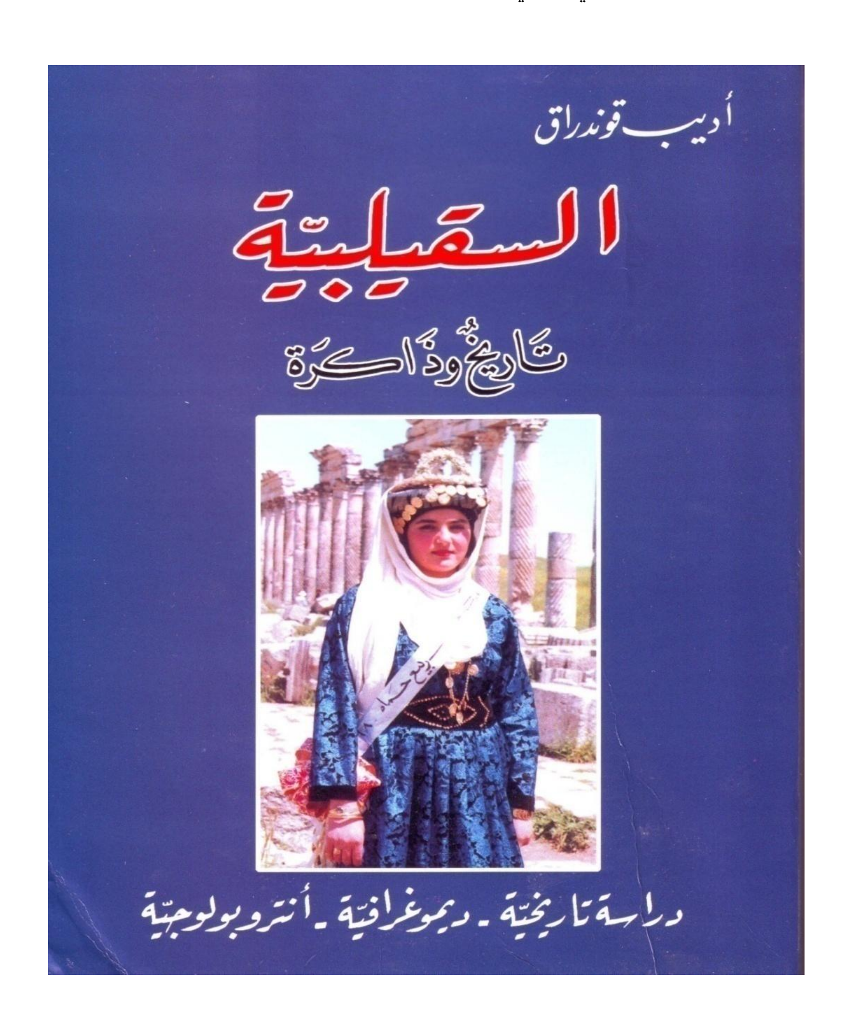
وفي الأيام التالية، تابع أهلنا في السقيلبية ومنطقة الغاب وقائع الأسبوع الثقافي وكان حقاً بمثابة عرس بل عيد احتفى به جميع أبناء منطقة الغاب.

- تمثيل محافظة حماة والمشاركة بالندوة الدولية للتراث في جامعة حلب



تم ترشيحي من قبل وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية لتمثيل محافظة حماة والمشاركة بالندوة العلمية حول الاتفاقية الدولية للحفاظ على التراث الثقافي. ضمّت الندوة خمسين كاتباً وباحثاً وأستاذاً جامعياً. جرى اللقاء في معهد التراث بجامعة حلب حيث استمرت الندوة ثلاثة أيام من ١ إلى ٣ تشرين الأول لسنة ٢٠٠٥ قدّم كلّ باحث موضوعاً تراثياً يخص محافظته. وفي الندوة تم تبني كتابي (السقيلبية تاريخ وذاكرة) كمرجع علمي ثقافي في التراث السوري.

حبيبتي السقيلبية لك المجـــد، ورغم كل الظروف ستظلين بهمة وإرادة شبابك الطموح، منارة وقدوة صالحة.


أديب قوندراق
السقيلبيّة
تاريخٌ وذاكرة
دراسة تاريخيّة - ديموغرافيّة - أنتروبولوجيّة

إلى مَدرستي الأولى حضن أمي

إلى مَدرستي الأولي حضن أمي.. وإلى من كونتني وصقلتني وعلمتني أبجدية الحياة.. معلمتي الأولى أمي.. على روحك أقرأ السلام إلى مَدرستي الأولى.. حضن أمي.

في أيام الأعياد نحمل خبزنا المقدس (القداس) ونقدمه إلى كاهن الكنيسة مع قائمة (ذكرانية) تضم أسماء الأحبة الذين رحلوا، ليتم ذكرهم أمام المذبح المقدس على مسمع المؤمنين، كي يبقى ذكرهم مؤبداً. وبمناسبة عيد المعلم واعترافاً بفضل من علموني خلال مراحل دراستي أقرأ السلام على أرواح من رحلوا، والدعاء بالصحة والعيش الهني والهادئ لمن هم أحياء يرزقون: المعلم موسى العجي وأخيه إسحاق، والمعلم مخائيل حداد وأخيه سالم حداد، وكان وقتها يدرس في القاهرة وفي كل مرة يزور سوريا كان يساعد أخيه في تعليم الأطفال، والمعلمة سارة الزودة وكان ذلك خلال أعوام ١٩٥٥ إلى ١٩٥٧ (مرحلة الحضانة)، وفي المرحلة الابتدائية من عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦٢ أذكر من بين من تركوا بصمات مشرقة في تكوين شخصيتنا، المربي الكبير جورج العبد الله، وداهود السيوفي من حماه، وفهد عجايقي من محردة، وفؤاد دعبول. وفي المرحلة الإعدادية أُقر وأعترف بفضل كل من المرحوم غسان النادر، ونفود دويب، والدكتور حنا دعبول قبل سفره لدراسة الطب في بلغاريا. ومن عام ١٩٦٥ – ١٩٦٨ تابعنا تحصيلنا العلمي في ثانويات عثمان الحوراني وأبي الفداء في مدينة حماه. ومن الأسماء المؤثرة والمنقوشة في ذاكرتي والعصية على النسيان تحضرني ذكرى من تولى أمورنا ورعانا بكل عطف واهتمام الفقيد الذي لا يُعوض عبد الحسيب الأسعد ابن السقيلبية البار، وميشيل لباد، وغسان الجاجة، وأديب رمضان،

ومحمد درويش، وجميل نعمان، وهو الذي علم آباءنا قبلنا وعلمنا التربية الدينية. ولا أزال أذكر طربوشه الأحمر وشرابتة التي تلوح ذات اليمين وذات الشمال وعبثُ الزملاء الأشقياء بطربوش النعمان ولا نزال متأثرين برقة وتهذيب ولطافة الأستاذ محي الدين ريشة مدرس الأدب العربي، واسماعيل بطرش مدرس اللغة الانكليزية، وكان كل منهما عضواً في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكلاهما توجهت إليه أصابع الاتهام بالمشاركة في قضية اغتيال عدنان المالكي بدمشق وكنا كطلاب نعمل بخبث للإيقاع بينهما.

في سنة ١٩٦٨ غادرت إلى جامعة دمشق قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية ونهلنا العلوم الراقية من ينابيع أساتذة كبار بحق أمثال الدكتور عبد الكريم اليافي، والدكتور فاخر عاقل، والدكتور عادل العوا. وجميعهم أعضاء في مجمع اللغة العربية والدكتور طيب تيزيني، الذي كان لنا أستاذاً وصديقاً، والدكتور نايف بللوز أستاذاً ورفيقاً في العمل السياسي، والدكتور محمد توفيق بجيرمي (يا رعاك الله) كان يؤلمني فقره المدقع بسبب إعالته لأسرة كبيرة جداً من أهله النازحين، والدكتور صفوح الأخرس، (شرم برم كعب الفنجان)، هذه الكلمات التي كان يرددها ساخراً من المستوى الذي هبطت إليه الأغنية السورية آنذاك. والدكتور عبد الكريم زهور وزير الزراعة زمن الوحدة مع مصر، والدكتورة جولييت عويشق زوجة رئيس مجلس الشعب جورج خوري، كانت تمسح دموعها بمنديلها الأبيض وهي تحدثنا بالانكليزية عن آخر أيام سقراط The Last Dayes Of Socrates متذكرة وفاة زوجها قبل أيام.

وفي الدراسات العليا أذكر الدكتور بديع الكسم، والدكتور جورج جبور المستشار السياسي للسيد رئيس الجمهورية، والدكتور الرقيق اللطيف والخجول أسعد عربي درقاوي وزير التعليم العالي في سوريا.

ولا أنسى أساتذتي في مجال الصحافة من عام ١٩٧٠ – ١٩٧٢ وهم كثر ومن بلدان متعددة من ألمانيا الشرقية – آنذاك: فرانس فابر مراسل صحيفة نيوز دوتشلاند في فيتنام أثناء حربها مع أمريكا، والوجه المشرق الذي لا يُنتسى أدولف ليغيه وكان يحب لباس العباءة والعقال ويتكلم بعض كلماتنا العربية: (أنا أومر بن الختاب أتفكد الرئية) (أنا عمر بن الخطاب أتفقد الرعية)، وكنا نحبه كثيراً، ومن الأساتذة العرب أذكر اللاجئ السياسي السعودي والروائي العالمي الدكتور عيد الرحمن منيف صاحب روايات مدن الملح وكان يطلعنا على خفايا أسرار آل سعود المشين والبترول السياسي، ومن العراق أذكر أستاذي الدكتور فاضل الأنصاري وكان لاجئاً سياسياً فاراً من سطوة صدام حسين التكريتي، والدكتور بدر الدين السباعي وكان يدير مؤسسةً للنشر والطباعة بدمشق، صديق موسكو السوفياتية ومروج للكتب والأفكار العلمية والماركسية، ولن ننسى أستاذنا الأديب الكبير مدحت عكاش صاحب مجلة الثقافة الأسبوعية الدمشقية، ونذكر كيف تجرأ ذات يوم وهو تلميذ في مقتبل العمر، وسأل أستاذه الشيخ: هل أحببت يا شيخنا؟ وأجاب الأستاذ الشيخ: وهل من شجرة لم تهزها الريح يا بني!!!!، أما الأستاذ الكبير حسين عودات رئيس تحرير وكالة الأنباء السورية (سانا) ومؤلف كتاب "العرب النصارى" فصورة فامته الباسقة كشجرة نخيل مثمرة، وصوته الذي ينطوي على لكنة بدوية درعاوية

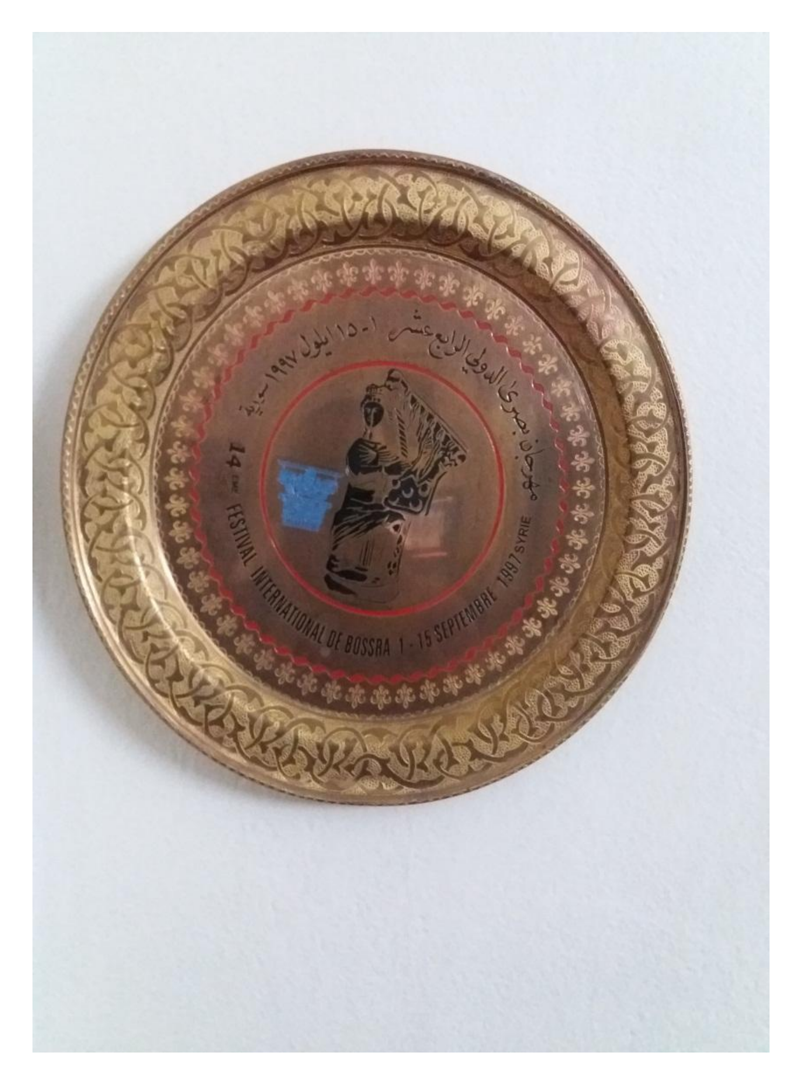
محببة، وجرأة قل نظيرها في النقد وفضح الخطأ. وكذلك الصحافي ميشيل كيلو وأديب خضور والدكتور منير حمارنة من الأردن والذي لم تفارق السيجارة شفتية حتى أثناء محاضراته، والأستاذ عبد اللّه الحوراني مدير معهدنا الإعلامي والذي تم ترشيحة لرئاسة فلسطين بعد وفاة ياسر عرفات.

عام ١٩٧٣ تابعت دورة لتعلم اللغة العبرية لصالح إذاعة دمشق (مذيع باللغة العبرية) أذكر من أساتذتي الكبار الدكتور ربحي كمال من فلسطين وكان يشغل منصب أستاذ اللغات السامية في جامعات دمشق وعمان وبيروت، والدكتور ربحي كمال كان في الثمانين من عمره وكان يقول: أسرار إطالة العمر هي ثلاثة: (العمل الجاد، الحمام البارد صيفاً وشتاءً، والشاي الساخن) والأستاذ يحيى اليحيى الذي لم تدم ضحكته وقهقهته المميزة طويلاً حيث لبى نداء ربه على عجل ورحل، وأحمد جراد والسيدة وصال سمير رئيسة قسم اللغة العبرية في إذاعة دمشق والمقدم تحسين ميرخان.

وأخيراً أحني الرأس إجلالاً واحتراماً لآخر أساتذتي حيث لا أزال رغم تقدمي في السن أتلقى على يديها في كل يوم علماً جديداً ومعرفة نافعة (الحياة) فاليوم الذي لا أكتسب فيه علماً جديداً لا أحسبه من عمري.

أديب قوندراق
١٨-٣-٢٠١٧

حبيبتي السقيلبية لك المجد



بتاريخ ١٤ أيلول ١٩٩٣ قامت فرقة الفنون الشعبية في المركز الثقافي العربي في السقيلبية بتمثيل محافظة حماة في مهرجان بصرى الدولي وقدمت عرضاً فنياً رائعاً حضره أكثر من ثلاثين ألفاً،

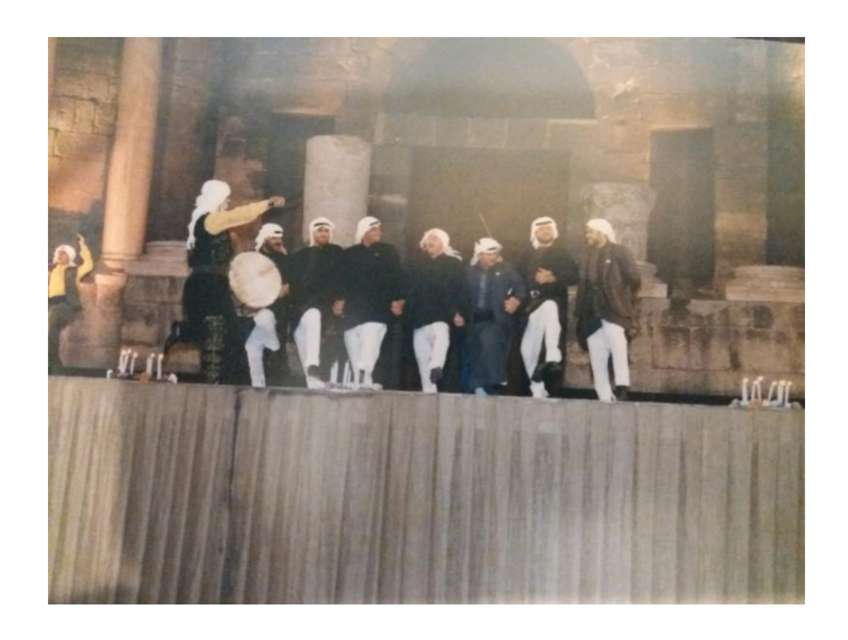
وتابعه الملايين في العالم، من خلال مشاهدة الفضائيات السورية والعربية. وكانت عروض فرقتنا بعنوان (ومضات فرح من محافظة حماه)

تفاعل الحضور مع أداء شبابنا وصبايانا ودهشوا بروعة الأداء. شكراً لكم شبابنا، شكراً لكنّ صبايانا، عندما أردتم طاع لكم المجد، ووقفتم بجدارة وثقة عالية بالنفس، على المسرح الذي قدمت أشهر الفرق العالمية عروضها الفنية، ووقفتم وأنشدتم في نفس المكان الذي اعتلته فيروز يوماً.

السيد محافظ حماه محمد سعيد بخيتان، تابع وقائع عروض فرقتنا بفخر واعتزاز ودعا جميع أعضائها بعد اختتام وقائع المهرجان إلى مكتبه حيث أثنى عليهم وشكرهم بامتنان لتمثيلهم محافظة حماه أرقى تمثيل. قدمتُ للسيد المحافظ درع المهرجان فتقبله شاكراً وقام بنفسه ليعلقه على الجدار فوق مكتبه.

واحتراماً لما قدمته فرقتنا للفنون الشعبية قامت المذيعة السورية الآنسة وفاء الأسعد بتغطية وقائع مهرجان بصرى وهي ترتدي لباس المرأة السقيلباوية (اللباس الملكي) واختتمت وقائع المهرجان باللباس السقيلباوي.


المركز الثقافي العربي





الآنسة وفاء أسعد المذيعة في التلفزيون العربي السوري باللباس الملكي السقيلباوي

أُقيمت مسابقة لانتقاء ملكة جمال الربيع لمحافظة حماه بتاريخ ١٩٩٨/٣/٢٣ في فندق أفاميا الشام، وبحضور عدد كبير من المدعوين والرسميين وعلى رأسهم السيد المحافظ، وبمشاركة واسعة ومتنوعة لصبايا من مختلف أنحاء مدن وبلدان وقرى محافظة حماه، حيث أجمع أعضاء لجنة التحكيم على اختيار الآنسة رأفت إسبر (١٨ سنة) من السقيلبية. (عضو فرقة الفنون الشعبية للمركز الثقافي العربي في السقيلبية)، ملكة تتبوأ عرش جمال الربيع في محافظة حماه.

فمبروك عليك يا أم المجد (السقيلبية) عرش الجمال.


ملكة

الفهرس



شكلت الأعوام الثمانية التي عاشها أديب قوندراق مطلع شبابه في دمشق أبرز المحطات الهامة في تكوين شخصيته العلمية والثقافية، لا بل اعتبرها هو المرحلة الأهم في حياته.

غدت دمشق "المكان والزمان" بناسها وأعلامها ومطارحها، منطلقاً لكثير من الأفكار والمشاريع الثقافية والأدبية التي كان يطمح لها ويفكر بتنفيذها لاحقاً في مسقط رأسه ومدينته السقيلبية.

وهذا ما كان له بعد أن غادر دمشق أواخر العام ١٩٧٧ راجعاً إلى السقيلبية حاملاً في قلبه ووجدانه عشقه الأزلي لها وذكرياته التي لا يمكن نسيانها عن أقدم عاصمة في التاريخ، و أراد لهذه الذكريات أن تكون في كتاب.

... قد لا نغالي فيما لو قلنا أن أديب قوندراق قد أصبغ بحضوره المعرفي، والثقافي، والإداري فترة هامة وذهبية من حياتنا الثقافية طيلة تسلمه فيها إدارة المركز الثقافي العربي في السقيلبية خلال الثمانينيات والتسعينيات الماضية ومطلع الألفية الثالثة.



دار دلمون الجديدة